جامعة الأزهر الشريف

رسائل أهل الأندلس النبوية
دراسة في المضمون وقيم التشكيل الجمالي

دكتـــور
محمد عبد العزيز عبد العزيز
مدرس الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بالمنصورة.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وبه نستعين ، نَحْمَدُهُ – سبحانه – حَمْدًا يَبْلُغُ رضاه ، ونستعيذُ به، ونستغفره، ونستلهمه العفو والعون والعافية . والصلاة والسلام على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم– سيد الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله – تعالى– للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـــد

فالتراث الأندلسي لا يزال في حاجة إلى الدرس والبحث الجاد الذي يكشف عن قيمته التي خلفتها الحضارة الإسلامية في الأندلس، والعناية بهذا التراث هو حفظ لثقافة الأمة الإسلامية، وحفظ لهويتها وحضارتها، ومن هذا التراث رسائل تميز بها الأندلسيون، وأظهروا براعة فيها وتميزا عن غيرهم ، كانوا يكتبونها ويبعثون بها مع وفود الحجيج الراحلين لزيارة البقاع المقدسة ، ومقام الرسول – صلى الله عليه وسلم– تعبيرا عن شوقهم وحنينهم إليه ، ورغبة في أداء فريضة الحج .

وترجع قيمة هذه الرسائل إلى أنها تتحدث عن عالم نقي وروحي ، يزخر بمعاني الحب، والصدق، والعواطف السامية ، والجلال والجمال، والسمو الروحي، ذلك أنها تحدثنا عن شوق النفوس ، وتطلع الأفئدة إلى زيارة خير البشر، وسيد الرسل محمد–صلى الله عليه وسلم– ، ومعاينة المعاهد الشريفة، والبقاع الحسان في بلاد الحجاز.

فإلى هذه الديار المباركة تتوجه قلوب أهل الإيمان من المسلين ، وتهفو إليها نفوسهم ، إذ يفدون إليها من كل فج عميق راغبين راهبين ، وإلى مشاهدة آثارها ومعاهدها مشتاقين ، ليمتعوا أرواحهم ونفوسهم بما تحمله من ذكريات مجيدة، وأحداث عظيمة . وقد أذكى الشوق والحنين إلى هذه البقاع الطاهرة خيال الكتاب، فراحوا يسجلون أشواقهم وحنينهم في رسائل تفيض بالصدق والعذوبة، والرغبة والرهبة.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عوامل كثيرة، منها :

- جلال الموضوع الذي تتحدث عنه هذه الرسائل ، وعذوبة أسلوبها ، والصدق الذي هيمن عليها، والإيمان الكامن في نفوس كاتبيها.
- الإحساس بالجمال، والجلال، والمتعة النفسية عند قراءتها، والتطلع في أهدافها، والوقوف على مشاعر الصدق والحنين التي تسيطر على الكتاب.
- إمتاع النفس بما تحمله هذه الأماكن من معاني العزة والمجد ، وذكريات الرسالة المحمدية، وأحداث التاريخ الإسلامي، وأن أعيش مع الكتاب هذا الجو الزاخر بالجمال والجلال ، والإيمان والصدق، والصفاء الروحي.
- انحناء هذه الرسائل على كثير من القيم الجمالية والفنية التي تغري الدارس باستجلائها، والتحاور مع أبعادها وموضوعاتها.
- أن هذه الرسائل ظاهرة تميز بها الأديب الأندلسي؛ وهي لم تكن فقط وليدة مشاعر ذاتية أذكاها الشوق والحنين إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– وأداء فريضة الحج، – بل كانت أبلغ تصوير لما يجيش في صدور أهل قُطرٍ نأت بهم الديار، وعزّت عليهم مشاهدة البقاع المطهرة، وثمرة أرواح هائمة بحب المصطفى– صلى الله عليه وسلم.

وبعد قراءة هذه الرسائل قراءة واعية ، والنظر فيها نظرة فاحصة، وجدت أن دارس هذا اللون من الرسائل لا غنى له في دراستها عن الوصف، والنقد، والفن، والتحليل، والتاريخ ، وهذا كله يفرض علينا أن نسلك في دراستها ما يعرف بالمنهج التكاملي الذي يلم بهذه المناهج كلها ويجمع بينها.

وقد قسمت البحث بعد هذا التقديم إلى تمهيد وخمسة فصول، وخاتمة. تناولت في التمهيد– بإيجاز– الأحداث التاريخية التي عاصرت كتابة هذه الرسائل، والدافع إلى كتابتها .

وفي الفصل الأول: (البناء النفسي والفكري) عرضت للدوافع النفسية والفكرية في هذه الرسائل ؛ فتحدثت عن الشوق والحنين ، والصدق، والتوسل بالرسول–

صلى الله عليه وسلم- ، والشكوى والاستغاثة، وختمت هذا الفصل بالثناء على الرسول الكريم، وذكر شمائله، وخصاله، ومعجزاته.

ثم كان الفصل الثاني ؛ (البناء الفني) وفيه وقفت مع الابتداءات، والانتقال، والخواتيم.

وجاء الفصل الثالث (الصياغة الفنية) وفيه تناولت الألفاظ والتراكيب ، والمعاني، وسمات المعنى، وأساليب التعبير كالاستفهام، والنداء، والدعاء، والقسم، وبعض الظواهر الأسلوبية كالسهولة والوضوح، والتكرار، والتناص الديني والأدبي، والمحسنات البديعية.

أما الفصل الرابع (القيم التصويرية) فعرضت فيه للصورة وأهميتها، والوسائل التي اعتمد عليها الكتاب في تشكيل صورهم ، وأنماط التصوير ، وذكرت من ذلك : التصوير البياني الذي تحدثت فيه عن التشبيه، والاستعارة، والكناية، والتشخيص، والتجسيد، والتصوير التقريري ، والصورة الحركية ، وختمت هذا الفصل بالصورة النامية أو الممتدة .

وفي الفصل الخامس (الخصائص والقيمة) رصدت ما يميز هذه الرسائل، ووقفت على قيمتها، فتحدث عن تنوع العاطفة ، والطول ، والترابط والتواؤم ، وتميز الظاهرة.

ثم كانت الخاتمة؛ وفيها أشرت إلى ما تضمنته فصول هذا البحث من حقائق، وانتهت إليه من نتائج. ثم ختمت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

دكتور/ محمد عبد العزيز عبد العزيز

تمهيد : الأحداث التاريخية ، والدوافع الدينية.

آلت الأندلس في عهد ملوك الطوائف إلى إمارات متناثرة، لا يجمع بينها وفاق ولا يضمها حاكم قوي يجمع شملها ، ففي كل إمارة ملك يستأثر بها، ينـاوئ جـاره ويكيد له ، ويتربص به الدوائر ، ويتحين الفرصة للقضاء عليه ، والنيل من إمارته، وقد اشتدّ التناحر والنزاع بين الملوك والأمراء حتى وصل إلى التقاتل، والتآمر مـع الأعداء ضد بعضهم البعض ، وأصبحت الأندلس ضعيفة لا تقـوى علـى مواجهـة الأعداء الذين يتربصون بها، وعرضة لهجمات أبناء الصليب الذين يتحينون الفرصة للقضاء على دولة الإسلام في الأندلس.

ولم يزل ثغر الأندلس يضعف، وشوكة العدو تقوى، والفتنة بين أمراء الأندلس تستعر ، الأمر الذي أطمع أهل الصليب في خيراته، ووافر ثرواته، فأرغموهم علـى الخضوع لهم، وفرضوا عليها الإتاوات التي دفعها ملوكها صاغرين(١).

وقد أخذت يد العدو الغاشم في القرون التالية تنوش بلاد الأندلس وحصونها من كل جانب ، حتى أتت على أكثرها ، واستولت على الطارف والتليد ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير(٢).

---

(١) انظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عِذَارِى المَرَّاكُشِي، تحقيـق: ج .س. كولان وليفي بروفنـسال: ٢٢٨/٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣م.

(٢) سقطت جل القواعد الأندلسية في يد النصارى كبربشتر ، وطليطلة، وبلنسية ، و غيرها من المدن الكبرى انظر حوادث سقوط بربشتر في: الـذخيرة فـي محاسـن أهـل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني ت٥٤٢هـ. تحقيـق: د. إحـسان عبّـاس ١٧٩/١/٣، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م. ، والبيان المغرب: ٢٢٥/٣ ، وطليطلة وحوادثها في الـذخيرة : ١٦٣/١/٤ – ١٦٩ . ونَفْحُ الطَّيب من غصن الأندلس الرطيب: الشيخ أحمـد بـن محمـد المقَّرِّي التلمساني ، تحقيق: د.إحسان عبّاس ٣٥٢/٤ ، ٤٤٧، ٤٤٨ ، دار صادر ، بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م. وبلنسية وغيرها من مدن الأندلس في نفح الطيب: ٤٥٦/٤ ومـا بعدها.

ولم تزل القوى الإسلامية في الأندلس تفقد قوتها وتتراجع حـدودها، والقـوى النصرانية تنمو وتقوى ، وتلمّ شعثها، وترأب صدعها، وتتحين الفرصة للانقـضاض على الأندلس والهيمنة عليه، فسقطت جل القواعد الأندلسية في يد الإسبان النصارى حتى تمكنوا من الأندلس كله، فأهلكوا الحرث والنسل ، وعاثوا في الأرض فـسادا ، وأشاعوا القتل والذبح في المسلمين ، وقد أُصيب صرح الأندلس الشامخ ، وقُوضت المساجد والمعالم الإسلامية ، ونسخ نداء الحق بناقوس الـصليب، وعـاد الإسـلام غريبا في هذه البقعة النائية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!.

وقد أثرت هذه الحوادث المؤلمة في نفوس المسلمين ، وألَـمَّ بهـا الحـزن واليأس والانكسار، وعلا صوت العَويل والزفرات في جنبـات الأنـدلس، وامـتلأت الصدور بالغليل والحسرات، والعيون تسكب دمعا مدرارا أسفا وحزنا علـى بلادهـم التي أصبحت تزجي إلى قلوب الكهول والشبان آلاما مبرحة ، وهمًّا مقيما لما حلّ بها من مظاهر الخراب والدمار .

ونتيجة لسيطرة دوله الصليب ويد البغي والعدوان على بلاد الأندلس، والهزائم المتلاحقة التي مني بها الحكم الإسلامي في الأندلس، والصراع الداخلي بين الأمـراء المسلمين ، واليأس من مقدرتهم على صد هجمات الأعداء وحماية ما بقي من المدن الأندلسية – أخذ الشعور الديني ينمو ويشتد، والروح الدينية تقوى، وبدأت نفـوس المسلمين تتجه نحو ربها، والتشفع بنبيها – صلى الله عليه وسلم– والاستنجاد بـه، من تلك المحن والمصائب التي أحاطت بالمسلمين في الأندلس.

توجهت النفوس والقلوب إلى الله– جلّ جلاله– وتضرعت إليه كي ينجيهم مـن الكرب الذي وقع عليهم، والضيم الذي لحق ببلادهم ، والتجأت إلى رسـوله الكـريم محمد– صلّى الله عليه وسلّم– متوسلة به عند ربها أن ينجيها من النوائـب التـي كادت تقصم ظهورها، وتهدد وجودها.

وكلَّما تمكنت هذه الفتن والقلاقل من المسلمين في الأندلس، ازداد تقربهم إلـى ربهم، واتجهت قلوبهم إلى التعلُّق بنبيهم – صلى الله عليه وسـلم–،عـسى الله أن يكشف عنهم الغمة ، ويزيح الكربة.

وقد تتبع الأديب الأندلسي النكبات والمحن التي حلت بالمسلمين في الأنـدلس، فسجل ذلك كله، وتفاعل مع أحداث بلده بقلبه وروحه قبل قلمه، وأبدع شعرا ونثـرا

يبكي فيه تناحر الملوك والأمراء وعدم اتحادهم لمواجهة العدو الغاشم المتربص بهم للقضاء على البقية الباقية من أرض الأندلس .

وقد ألمح المقّري إلى ذلك حين قال: "ولم يـزل أهـل الأنـدلس بعـد ظهـور النصارى- دمرهم الله تعالى- على كثير منها- يعني مدن الأنـدلس- يستنهـضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثأر ، بالنظم والنثار ، فلم ينفعهم ذلـك حتـى اتـسع الخرق، وأَعْضَل الداءُ أهل الغرب والشرق"(٣).

راح كتاب الأندلس ينفِّسون عمّا يشعرون به مـن وطـأةِ الظلـمِ والاسـتعمار الغاشم، وما أصابهم من نكد وتعب، وقلق وكمد في رسائل تفيض بالصدق وحـرارة الشوق إلى زيارة الرسول – صلى الله عليه وسلم- والاستغاثة بـه، عـسى الله أن يكشف عنهم هذه الغمة التي بليت بها البلاد والعباد.

وقد أخذت هذه الرسائل تنمو وتزدهر منذ أواخر عصر أمـراء الطوائـف ، "إذ أخذ الكتاب في الأندلس يستشعرون محنة بلدهم وما يتهددها من الأخطـار ، فبثـوا شكواهم إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- في رسائل تفيض بوجد ملتهب لزيارة قبره الشريف ، وبتوسل ضارع لشفاعته يوم الحشر الأكبر ، وأخـذوا – مـع تقـدم الزمن- يضمنون رسائلهم بعض الأحداث في الأندلس ، آملين من الرسـول الغـوث والعون على أعدائهم ، وأن تدور عليهم الدوائر"(٤).

وكانت هذه الرسائل تقوى في الأندلس وتزداد انتشارا مع قوة الخطر النصراني الذي يحيق خطره بالبلاد من كل جانب، وتأجج الفتن والقلاقل الداخلية، لاسيما أيـام

---

(٣) نفح الطيب: ٤/٤٧٩. سجل الشعراء والكتاب هذه الحوادث شعرا ونثرا ، انظر – على سبيل المثال- قصيدة ابن الأبار ونونية الرندي وغيرهما في الاستغاثة ورثاء هـذه المدن: نفح الطيب ٤/ ٤٥٧، ٤٧٩- ٤٨٨، ورسالتي ابن عميرة وابن الآبار في سـقوط بلنسية اللتين تترجمان هذا الواقع الأليم الذي كان يعشه أهل الأندلس فـي ظـل هجمـات النصارى واستيلائهم على مدن الأندلس في السابق : ٤/٤٩٠- ٤٩٩.

(٤) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات، الأندلس)، د. شوقي ضـيف ص ٤٨٠، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩م.

الموحدين وبني نصر، واشتداد المقاومة الأندلسية(٥). لذا يمم الشعراء والكتاب وجوههم شطر الدين والتعلق بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – ومديحه ، للاستغاثة به وإنقاذهم من محنتهم، فكانوا يبعثون بهذه الرسائل إلى القبر النبوي الشريف تنفيسا عما يشعرون به وطأة الظلم والقهر .

كما كان من عوامل ازدهار هذا النوع من الرسائل: الإيمان الصادق الكامن في نفوس الكتاب، فقد امتلأت قلوب أصحابها بالإيمان وحب الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– والشوق العارم إلى زيارته، وأداء فريضة الحج ، ورؤية البقاع المقدسة، وتعفير الخد عند قبره الشريف ولثم ترابه الطاهر ، لذا فقد حنوا إلى زيارته، واشتاقوا إلى رؤية مقامه الشريف، والسير في هذه البقاع التي نالت عظيم الشريف بوطأة قدمه عليه، لكنهم لا يستطيعون ذلك، فراحوا يكتبون هذه الرسائل يبثون فيها أشواقهم وحنينهم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في عاطفة جياشة ، ويأسفون فيها لعدم المثول بتلك الأماكن المقدسة، والمعاهد الطاهرة التي تظمأ إليها أرواحهم ، وتهيم بها أفئدتهم ، وتحن إليها نفوسهم.

فكانت هذه الرسائل وسيلة للتعبير عن خلجات النفوس، والإيمان الكامن فيها، والشوق العارم للنبي– صلى الله عليه وسلم ، وما يكابده أهل الأندلس من مصائب وأحزان في ظل هجمات أهل الصليب المتتابعة ، وبطش يد البغي والعدوان الآثمة، "ولكنها بالنسبة للأندلس الآخذة بالضياع تشبث الغريق بحبل النجاة، وتنفيس عن الحيرة الدنيوية في ظل الأهواء المتنازعة والأمارات المنقسمة، وكلما اشتدت وطأة الحياة السياسية على الأندلسيين ومدنهم أصبح التفاتهم إلى مصدر الدين أقوى، وحنينهم إليه أشد، تعلقا منهم بخيط من خيوط الرجاء"(٦).

---

(٥) انظر: السيرة النبوية في التراث الأندلسي : د. محمد رضوان الداية ص ٧٣ وهامشها ، مجلة التراث العربي (مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب) دمشق ، العدد الأول ، السنة الأولى، نوفمبر ١٩٧٩م.

(٦) الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس ص ٣٠٣ ، دار الثقافة، بيروت ، السادسة ١٩٨١م.

وقد أكثر الأندلسيون من كتابة هذه الرسائل التي يعبرون فيها عن أشواقهم وحنينهم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وزيارة البقاع المقدسة ، إذ كانوا يتخذون منها مددًا روحيًا في مقاومة أبناء الصليب دمرهم الله.

هذه الرسائل تصور نفسية الكتاب الذين لم تسعفهم الظروف لزيارة النبي – صلى الله عليه وسلم– والتمتع برؤية البقاع المقدسة، وتصف ما يكابدونه من شوق وحنين إلى زيارتها.

كما تكشف عن التدين العميق والكامن في نفوس الأندلسيين، وتطلعهم الصادق إلى تأدية فريضة الحج ، وتشوقهم إلى زيارة قبر الرسول الكريم ،كما تشف عن المصاعب والمخاطر التي تكتنف رحلة الحج ، والتي تجعل من تأدية هذه الفريضة أمرا صعبا عزيز المنال ، مما يدفع بعض الكتاب إلى التعويض عن الرحلة بكتابة رسائل مطولة وإرسالها إلى مقام الرسول الكريم مع حجاج بيت الله الحرام(٧).

وكان الكتاب يبعثون بهذه الرسائل مع وفد الحجيج القاصدين بيت الله الحرام إلى الرسول– صلى الله عليه وسلم– ، فيكثرون من ذكر شمائله، ومديحه، والثناء عليه، ويتأسفون لبعد الديار الحجازية عن الديار الأندلسية، ويعتذرون عن ظروفهم الصحية والمادية التي تحول بينهم وبين زيارته، ويعبرون عن أشواقهم وظمئهم، ويبثون للرسول الكريم آلامهم وآمالهم.

وقد أشاد المقري بهذا النوع من الرسائل الذي تميز به أهل المغرب والأندلس عن أهل المشرق، نظرا لبعد بلادهم عن أرض الحجاز، وما يكابدونه من صعوبات في هذه الرحلة المباركة إلى الديار المقدسة ، يقول :

"هذا مقام طالما طمحت إليه هِمم الرجال، وتسابقت جِياد أفكارهم في مضماره بالروية والارتجال، وسارت أرواحهم مع الرفاق ــ وإن أقامت الأشباح ــ، وطارت قلوبهم بالأشواق، ولم لا ، وهو سوق تعظم فيه الأرباح !"(٨).

---

(٧) انظر: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: د. فايز عبد النبي القيسي ص ١٩٧، دار البشير للنشر والتوزيع. عمّان ١٩٨٩م.

(٨) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض : شهاب الدين أحمد بن محمد المقَّري التلمساني ، تحقيق : سعيد أحمد أعراب، ومحمد بن تاويت ٢٠/٤ ، اللجنة المشتركة

لقد تفجرت قرائح الكتاب– في هذه الرسائل – بالثناء على الرسول– صلّى الله عليه وسلّم– وطفقت تسبح بحمده، وتُمني النفس بالطواف حول البيت الحرام، والمقام الشريف، وتتمسح بأعتابه، وتسفح العبرات شوقا إلى رحابه، ولهفة إلى جنابه، وحنينا إلى معاينة البقاع الطاهرة ، والمعاهد الشريفة في أرض الحجاز.

هذه الرسائل تؤكد تميز الكاتب الأندلسي، وتكشف عن براعته وابتكاره في الوقت نفسه، فلم يكن عالة على أدباء المشرق ، وإن كان تأثر بهم وقلَّدَهم ، إلا أنه طوَّر ، وجدَّدَ ، وابتكرَ !.

لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، الرباط ١٣٩٨هـ– ١٩٧٨م.

الفصل الأول : البناء النفسي والفكري

سجل الكتاب في هذه الرسائل ما تنطوي عليه نفوسهم من شوق وحنين إلى أداء فريضة الحج، وزيارة مقام الرسول – صلى الله عليه وسلم– ومشاهدة البقاع المكرمة في ديار الحجاز، وهي تؤكد حرص الكتاب الشديد على أداء الفريضة ، وتشف عن انطباع النفس نحو البقاع المقدسة ، وتحمل في طياتها ما تكنه النفوس ، وما تخفيه الصدور نحو الرسول الكريم والبقاع المطهرة . وفي هذه الصفحات نحاول التأمل في هذه الرسائل لنقف على العوامل النفسية والفكرية التي بنيت عليها، وكونتها، وكانت سببا في كتابتها .

أولا- الشوق والحنين

إن أهل الإيمان من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تتطلع نفوسهم وترحل عقولهم ومشاعرهم إلى زيارة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – والوقوف عند مقامه، ومناجاته ، وطلب شفاعته ، وتنبض قلوبهم بذكر الديار المقدسة والحنين إليها، فيتشوقون لزيارتها، وتهفو نفوسهم إلى حج بيت الله الحرام ، ورؤية تلك البقاع الطاهرة: مهبط الوحي، ومبعث مجد الإسلام ، ومنهل الهداية الراشدة، التي شهدت فجر الرسالة التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، فيذرفون العبرات، ويعترفون بالزلات، ويناجون ربهم عند بيته المحرم، ومثوى نبيه المكرم، رجاء عفو الله –تعالى– ومغفرته، والفوز بجنته.

وكان حنين أهل الأندلس وشوقهم إلى أداء الفريضة، ومشاهدة هذه البقاع الكريمة أشد وأقوى وأعمق؛ حنين له "لون خاص، نبع من بعد بلادهم عن الحجاز، وما يتجشمونه في الرحلة إليها، فكان الوصول إلى الأماكن المقدسة عندهم غاية لا

تدرك، وأمنية الأماني"[٩]. وذلك راجع لبعد أوطانهم عن الديار الحجازية، ومثوى سيد البشرية محمد – صلى الله عليه وسلم– .

كذلك كانوا في حرب لا تكاد تنقطع مع أنصار الصليب– دمرهم الله– فكانوا يدركون أنهم محاطون بأمم تناصبهم العداء وتقف لهم بالمرصاد ، تنتظر ضعفهم أو غفلتهم للانقضاض عليهم، والقضاء على دولة الإسلام في الأندلس.

هذه الظروف وغيرها ،كانت تقف لهم بالمرصاد في سبيل ما يتمنونه، وتحول بين بعضهم وبين زيارة هذه البقاع المطهرة؛ لذا فقد كانت تشتد بهم الأشواق ويجرفهم الحنين، فتسافر قلوبهم وترحل أرواحهم مع الراحلين، ولا يبقى لهم إلا تلك الأجساد المحطمة التي أضناها الشوق، وحالت الظروف بينها وبين الرحيل مع تلك المواكب التي كتب الله لها رؤية هذه المشاهد الكريمة، والمعاهد المقدسة.

وقد أحس الكتاب الأندلسيون بهذا الشوق الذي اشتد بمسلمي الأندلس جميعا، وغلبهم الحنين إلى زيارة النبي الكريم– صلى الله عليه وسلم– والتمتع بمشاهدة البقاع الحجازية فراحوا يسجلون أشواقهم، ويبثون فيها ما تنطوي عليه نفوسهم في هذه الرسائل.

ويظهر للمتأمل في هذه الرسائل ألوانا من الأشواق الروحية والنفسية ، "حيث نرى شوق الفؤاد إلى الفريضة الدينية ، ورغبة النفس في التطهير مما علق بها في مسيرة الحياة من هفوات، وحنين الحواس وتطلعها في تلهف حثيث إلى مشاهدة آيات الجلال، والتمتع بأنوار الجمال في مكة والمدينة... ولم لا ، وبلاد الحجاز لا يزال زائرها يلبي رغبات النفس من الزيارة، حتى إذا تطلع إلى جوانحه وجد في

---

(٩) المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي : د. محمود سالم محمد ص ١٨٢، دار الفكر ، دمشق، الأولى ١٤١٧هـ.

النفس حاجات إليها كما هي، إذ لم تزده المشاهدة إلا ولعا وهياما بمهبط الرسالة ، ومهد النبوة ، ومشرق الهداية الإسلامية"(١٠).

وقد عبر الكتاب في هذه الرسائل عن شوقهم الجارف ، وحنينهم الآسر إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وزيارة مقامه الشريف، ومشاهدة معاهد الجلال وآيات الجمال في مكة والمدينة ومناجاة الله –تعالى– وطلب عفوه ومغفرته. "فالقلوب المؤمنة تظل معلقة بظلال وأطياف الأمكنة التي تحمل عبق التاريخ ، وبطولات الإسلام، وأمجاد الأوائل"(١١).

ونماذج تعلق الكتاب بالديار المقدسة وشوقهم وحنينهم إلى زيارة المصطفى – صلى الله عليه وسلم– واضحة جلية في هذه الرسائل، ومن ذلك قول ابن أبي الخصال(١٢): "كتبتُ يا ركب الهدى، والراكبين للسبيل الأهدى، والمستقبلين العلَم المقتدى ، أمنتم صروف الردى ، ووقيتم صنوف العدى، وقربت عليكم الشقة والمدى، وقد أخرني عنكم حظ أو حد، لا ينبغي له أن يتعدى، وعاودني الشوق والتدله سدى ، وكانت في نفسي لبانة، أذهلني عنها شرق العين ، وغصصي بموقف

---

(١٠) الرحلة إلى الحجاز في الأدب المصري الحديث، دراسة ونقد وموازنة: د. أحمد محمد على حنطور ص٤٢٢، رسالة دكتوراه مخطوطة ، كلية اللغة العربية بالمنصورة ، جامعة الأزهر ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م.

(١١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق : د. صابر عبد الدايم ص ٨٧ ، الزقازيق ، مصر ١٤١٠هـ– ١٩٨٩م.

(١٢) الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي ، عني بالحديث ، وكان متقدما في الآداب ، عالما بالأخبار ، فقيها ، ذا ورع ودين، ت ٥٣٩هـ. انظر: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ابن خاقان: تحقيق د.حسين يوسف خريوش ١/ ٥١٨ ، مكتبة المنار ، الأردن ، الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م. الذخيرة: ٣/٢/ ٧٨٤ ، المغرِب في حلى المغرب: أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد الأندلسي ، تحقيق د. شوقي ضيف ٦٦/٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.

البين ، وعبرة تجود، وأخرى تخنق ، وزفرة لا تكذب وثانية تصدق ، وبعد ثالثة ما ادكرت، وعرفت من نفسي ما أنكرت ، واستدركتُ حاجة لا تثقل كاهلا ، ولا يزال الركب بها آهلا ، تأتم الهداة بأرجها، وتمشي الحداة على ذميلها ومدرجها، تُخَيَّرُ في الأحياء ، وتأبى إلا خاتم الأنبياء"(١٣).

إن موقف توديع الذاهبين إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي – عليه الصلاة والسلام– من أكثر المواقف وأشدها إثارة للأشواق، وتأجيجا لمشاعر الحنين التي لا يستطيع المرء المسلم أن يخفيها أو يتغلب عليها.

وكان من أثر الشوق والحنين إلى زيارة هذه الديار لدى هؤلاء الكتاب أن عبروا عما في نفوسهم ، وما يجيش في صدورهم في تلك الرسائل التي تفيض صدقا وإخلاصا، وتكشف عما تنبض به قلوبهم من شوق وحنين إلى زيارة النبي – صلى الله عليه وسلم – ورؤية هذه البقاع الطاهرة.

ومن هؤلاء كاتبنا ابن أبي الخصال؛ فقد اشتد به الحنين، وتأججت في قلبه الأشواق وهو يودع تلك المواكب من الحجاج الذين كتب الله لهم أداء فريضة الحج، وأسعدهم بزيارة الربوع التي أشرقت بنور النبي – صلى الله عليه وسلم– وتعطرت بنفحات طيبة، حتى كاد أن يسكب العبرات، ويبكي شوقا وأسفا على عدم استطاعته زيارة النبي– صلى الله عليه وسلم– ومشاهدة الديار المقدسة .

إن قلب الكاتب يكاد يحترق، وعينه لا تنقطع زفراتها، وهذا دليل شوقه ، وعاطفته الصادقة ؛ يبدو ذلك جليا في هذه العبارات : "عاودني الشوق والتدله

---

(١٣) رسائل ابن أبي الخصال : تحقيق : د. محمد رضوان الداية ص ٣٩٣، دار الفكر ، سورية ، الأولى ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م. الحد: المنع. وحدَّ الرجلَ عن الأمر: منعه وحبسه. لسان العرب: جمال الدين بن منظور ، (حدد) ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون. التدله: التحير. اللُّبانةُ: الحاجةُ من غير فاقةٍ ولكن من همّةٍ، يقال: قضى فلان لبانته ، أي حاجته .السابق : (لبن).

سدى"، "أذهلني عنها شرق العين ، وغصصي بموقف البين" ، "عبرة تجود"، "أخرى تخنق" ، "زفرة لا تكذب، وثانية تصدق ، وبعد ثالثة ما ادكرت" .

إنه يتمنى أن يكون في وفود الحجيج حين سعى جمعهم الحاشد إلى بيت الله الحرام، يسعى إليه بقلب نقي صاف، وثغر باسم متهلل من البشر ، وبرحيل الركب واختفائه من أمام عينيه لم تنته أشجانه، وبواعث أشواقه ، بل إن الشوق يزيد، والحنين يشتد ، واللهفة إلى لقاء الحبيب تسيطر عليه.

ثم يسأل الكاتب الركب الراحلين أن يبلغوا أشواقه وحنينه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ لم يستطع أن يكتم هذه الأشواق وهذا الحنين ، يقول : "فهل أنتم للأمانة مؤدون ، ولأخيكم بالدعاء له في تلك المواقف ممدون ، وبلسان ضميره متكلمون، وبتحيته على خاتم الرسل –صلى الله عليه وسلم– مسلّمون ، ولتربته عنه بشفاهكم مصافحون؟ لا جرم إنكم له ناصحون ، وبما حملكم معتنون، وللوفاء مؤثرون"(١٤).

إن حنين الكاتب الجارف، وشوقه الواضح جعله يستعيض عن زيارة البقاع المقدسة بنفسه بهذه الرسالة التي أرسلها مع ركب الحجيج لتنوب عنه في تأدية التحية على سيد البرية – صلى الله عليه وسلم– ، والدعاء له في تلك المواقف المباركة الشريفة ، فان لم يستطع القيام بهذه الزيارة بنفسه وجسمه ففي إرسال هذه الرسالة ما يكفيه، ويخفف عنه لواعج الشوق وعذاباته ، وألم التخلف عن أداء الفريضة ، وزيارة البقاع المباركة.

وقد برزت في هذه الرسالة مقدرة الكاتب الفنية، إذ نجحت الصورة في أن تكشف عن أشواقه العارمة، وتشي بما يجول في نفسه من مشاعر وأحاسيس، وعواطف وانفعالات.

---

(١٤) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٩٣ .

ومن نماذج الشوق والحنين- أيضا- قول أبي الحسن الجياني(١٥) معبرا عن شوقه وحنينه لزيارة البقاع المقدسة بهذه الاستفهامات المتوالية التي كررها أكثر من مرة. يقول: "كيف لي أن أمرغ الخد في عبير ثراها، أو أبلغ الجد الأعظم عندما أراها؟؛ هل يطيش عند ذلك لبي أو يذهل، أو يزيد أوامي عندما أرد ذلك المنهل؟، من لي بالخيف ومنى، وهل هما إلا أجل بغية ومنى؟، أظنك ضللت الطريق، وإلا فأينك من ليالي التشريق؟! وهلا أزدلفت إلى المزدلفة، ونقعت أوام النفس الكلفة؟، وتركت حطامك إلى الحطيم وزمزم؟ (١٦).

يكشف الكاتب عن اشتياقه وحنينه إلى الديار المقدسة بهذه الاستفهامات المتوالية، فهو في حنين دائم إليها، يذرف العبرات لعجزه عن الوصول إليها، فروحه تتطلع إلى أن تعيش في ظلال معاهد الجلال، ومشاهد الجمال في مكة والمدينة ، ونفسه تشتاق إلى التمتع بطهر العبادة وإشراق جنباتها بنور الهداية.

وهو يتساءل عن حالته عندما يرى هذه المشاهد الكريمة ، والديار المقدسة ويمتع قلبه وعينيه بمرآها ، فكيف حاله إذا شاهدت عينه مسجد الخيف، ومنى، والمزدلفة، والحطيم، وزمزم : "هل يطيش عند ذلك لبي أو يذهل، أو يزيد أوامي عندما أرد ذلك المنهل؟!.

ثم يتابع سائلا نفسه فيقول : "أرأيت استلام الحجر حجراً، أم بقيت في ليل الغواية وقد تبلج لك الرشد فجرا؟، أم حجبت عن البيت العتيق، وقصرت عن التقصير وما حلقت على التحليق؟، وما تنفعك الدموع المفاضة، وقد حرمت طواف الإفاضة؟، هل قرعت إلى الصفا كل صفاة، وامتطيت إلى المروة أطراف المرو الحداد

---

(١٥) علي بن محمد بن حسن الأنصاري، إشبيلي ، جياني الأصل ، كاتب بليغ، وشاعر مجيد فائق النظم ، ونحوي ماهر، كريم الأخلاق، طيب النفس، ت٦٦٣هـ . انظر : الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي، تحقيق د. إحسان عباس ٢٨٧/٥ ، ٢٨٨.، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٥م.

(١٦) السابق: ٢٩١/٥، ٢٩٢ .

بعزمة مستوفاة؟ ... ليت شعري ما يسكن هذا الشوق المثار؟، وهل أعفر وجناتي في تلك المشاهد الكريمة والآثار؟" (١٧).

هذه الاستفهامات المتوالية -التي تكررت أكثر من مرة- لم يهدف منها الكاتب الاستفهام عن شيء مجهول، وإنما لجأ إليها لتأكيد التمني، وإبراز التلهف إلى زيارة تلك البقاع التي تُغْفر لزوارها الذنوب، وتُحط عنهم الأوزار ، إنه يعبر عن شوقه وحنينه لزيارة البقاع المقدسة وما يجيش في صدره نحوها بهذا الاستفهام المتكرر، وكأنه يحج عبر هذه الكلمات التي يسجلها بقلبه قبل قلمه، إنه يستبعد أن يصل إلى تلك الديار القصية ، وأن يكحل عينه بمشاهدتها.

وفي النهاية يؤكد أن سبب هذا كله هو الشوق المتأجج في قلبه ، والحنين الثائر بين جوانحه الحرَّى من الوجد، فهو يعاني حرقة الجوى التي لا يطفئها إلا التمتع برؤية هذه البقاع المباركة، وري ظمأ الفؤاد بلقاء الحبيب- صلى الله عليه وسلم.

ومن نماذج التشوق والحنين- أيضا- قول ابن الخطيب(١٨) والذي يبدى فيه شوقه الجارف للنبي - صلى الله عليه وسلم- وزيارة البقاع المطهرة، مع الإفصاح عن ما آلمه بسبب عدم مساعفة الدهر له بزيارتها، يقول: "كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح، وخيل الوجد ذات جماح، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر، وانكسار لا يتاح له إلا بدنو مزارك الجبر، وكيف لا يعيى مشوقك الأمر، وتوطأ على كبده الجمر، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربك المقدسة اللحد، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت، والركائب إليك ما رحلت،

---

(١٧)السابق: ٢٩٢/٥ .

(١٨) هو ذو الوزارتين لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني المعروف بابن الخطيب ؛ كان كاتبا ، وشاعرا ، ومصنفا ، له المؤلفات الكثيرة التي تدل على فضله وعلمه، مات مقتولا ٧٧٦هـ . انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان ٤٣٨/٤ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م ، ونفح الطيب: ٧/٥-١٢ .

والعزائم قالت وما فعلت، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرح، وطيور الآمال عن وكور العجز لم تبرح"(١٩).

سطر الكاتب رسالته لتنم عن شوق ملتهب: "يزداد كلما نقص الصبر" ، وحنين يشتد، ودمع لا ينقطع، وانكسار لا يجبره إلا زيارة الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- ، فكلما تمنى أن يرى مقام الرسول الكريم والبقاع الطاهرة ، ويمني نفسه بهذه الأمنية العزيزة لا يجد إليها سبيلا ، فقد خانته الأيام وأخلفت وعدها معه ، وانصرفت الركاب ولم يودعوه، وتركوه وحيدا يزرف الدمع شوقا وحنينا ،وحزنا وأنينا.

وقد وفق الكاتب في اختياره اللفظة الموحية المعبرة عن شوقه الجارف وحنينه إلى النبي صلى الله عليه وسلم – فنجد هذه الألفاظ والتراكيب : الدمع ماح ، الوجد ، شوق ، الصبر ، انكسار ، كبده الجمر ، مطلت الأيام ، وعدت الآمال، دانت بإخلاف الوعد، انصرفت الرفاق، العين بنور ضريحك ما اكتحلت، لم تسرح، لم تبرح. وهي تكشف عن شوق ملتهب في نفس الكاتب، ومعاناة روحية ونفسية لعدم استطاعته الزيارة، وأن يكون في ركب الراحلين لأداء الفريضة.

إن الكاتب وهو يصور لواعج سلطانه نحو هذه البقاع المباركة، والمعالم الطاهرة، إنما يصور أعماق نفسه هو التي يثيرها التشوق المتأجج إلى زيارة النبي -صلى الله عليه وسلم- وتلك المعالم المقدسة، فالفائز من فاز برؤيتها ، وكحل عينيه بمرآها .

ويتجسد هذا الشوق والحنين وما يشعر به الكاتب من ألم نفسي وروحي في هذه الكلمات التي يعبر بها عن شوقه، لعلها تخفف ما تحمله نفسه من آلام الشوق، وما يعانيه قلبه من عذابات التمني، يقول: "أما والذي بعثك بالحق هاديا، وأطلعك

---

(١٩) الإحاطة في أخبار غرناطة ٥٢٧/٤ ، ونفح الطيب ٣٥٤/٦ ، وأزهار الرياض ٤١/٤ ، وقد اعتمدت على أزهار الرياض .

للخلق نورا باديا، لا يطفئ غلتي إلا شربك، ولا يسكن لوعتي إلا قربك، فما اسعد من أفاض من حرم الله إلى حرمك، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك، وعفر الخد في معاهدك ومعاهد أسرتك، وتردد ما بين داري بعثتك وهجرتك" (٢٠).

فالكاتب لا يطفئ غلته- أو إن شئت فقل سلطانه- إلا رؤية مقام الرسول- صلى الله عليه وسلم - ولا يروي ظمأ اشتياقه إلا القرب منه ، ولا يسكن لوعته إلا رؤية هذه المعاهد الحسان والتمتع بها، فبرؤيتها تسكن لوعته، وفي أنسامها العليلة براء علته.

إن ما أبداه الكتاب في هذه الرسائل من عاطفة جياشة ، وما بثوه من تباريح الشوق لزيارة الديار المقدسة والنبي الكريم- صلى الله عليه وسلم- لم يكن فقط وليد مشاعر ذاتية، بل كان أبلغ تصوير لما يجيش في صدور أهل قُطرٍ نأت بهم الديار ، وعزّت عليهم رؤية مشاهد الحجاز المطهرة ، وثمرة أرواح هائمة بحب المصطفى- صلى الله عليه وسلم- .

لقد كان الشوق والحنين إلى زيارة الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-، وأداء فريضة الحج ، والطواف حول بيت الله المحرم ، والتعطر بأريجه، والتعبد في جواره، والتهجد في ظلاله، ومشاهدة المعاهد المقدسة، والبقاع المطهرة في ديار الحجاز من العوامل النفسية المهمة التي بنيت عليها هذه الرسائل وفكرة رئيسة من أفكارها التي قامت عليها، بل إن هذا الشوق والحنين هو السبب الأول الذي تمخض عنه هذه الرسائل التي عبر فيها الكتاب عن شوقهم الجارف، وحنينهم اللافت لأداء الفريضة ، وزيارة الرسول – صلى الله عليه وسلم -، ومشاهدة البقاع الحجازية المقدسة.

---

(٢٠) السابق : ٤/٤١ .

ثانيا ـ الصدق

المتأمل في هذه الرسائل يتجلى له بوضوح الصدق الذي يطغى عليها، ويلف عباراتها، ويغلف كل كلمة فيها، ويظهر له تأجج الشوق في نفوس هؤلاء الكتاب، وحنينهم الجارف إلى أداء الفريضة ، وزيارة النبي –صلى الله عليه وسلم– ، ورؤية البقاع الحجازية المباركة .

هذا العامل النفسي المهم قد ملك على الكتاب قلوبهم وأرواحهم ، وسيطر عليهم، وبدا جليا في عباراتهم وألفاظهم بل في كل كلمة يسجلونها ، وكيف لا وهم يسجلون أشواقهم وحنينهم إلى خير البشر محمد – صلى الله عليه وسلم.

لقد أدرك هؤلاء الكتاب عظمة نبيهم – صلى الله عليه وسلم– ومنزلته عند ربه، وهم على وعي تام بأن حب النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم – من كمال الإيمان، فلا يكتمل إيمان المرء إلا بحبه النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم.

كذلك كانوا يدركون وهم يكتبون رسائلهم، ويعبرون فيها عن أشواقهم وحنينهم وحبهم لنبيهم– صلى الله عليه وسلم– أنهم لا يخاطبون شخصا كباقي البشر، وإنما يعبرون عن حبهم مع خاتم النبيين، وسيد المرسلين ، ورسول رب العالمين، أكرم من خلق الله، وشفيعهم يوم الحشر بإذن ربهم ، لذا كانوا صادقين في أشواقهم وحنينهم، وتميزت رسائلهم بسمو العاطفة، والحنين الآسر، والشوق الجارف الذي يكشف لنا بوضوح عن عاطفة الكتاب الصادقة ، وبلوغهم أعلى درجات الحب الصادق للرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم.

ومن النماذج التي تكشف عن ذلك قول أبي القاسم بن الجد:[٢١] "كتبت يا أكرم الأنبياء وسائل، وأعظمهم فضائل، وأعمهم فواضل، وأتمهم فرائض ونوافل، وقلبي

---

(٢١) الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجد الفهري ، كاتب بليغ ، من أهل التفنن في المعارف والبلاغة والآداب ، والفقه والحديث ، ت ٥١٥هـ. انظر: قلائد العقيان ١/ ٣٢٢ ، الذخيرة: ٢٨٥/١/٢ ، المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية : تحقيق: إبراهيم الإبياري وزميليه ص ١٩٠ ، إدارة نشر التراث، القاهرة ١٩٩٣م ، المُغرب: ٣٤١/١.

بحبك معمور ومأهول، وعلى الإيمان بك مفطور ومجبول، وبتمثل ما عاينته من عظيم آثارك مهول مشغول، ومن لي بمقول ألا يتخلله خلل، ولا يدركه في الصلاة عليك والدعاء لك ملل، ولا يشغله عن ذكر الله -تعالى- وذكره سهو ولا خطل، حتى أقطع بذلك آناء ليلي ونهاري، وآصالي وأسحاري، وأجعله شعاري ودثاري، وهجيراي في إعلاني وإسراري" (٢٢).

إن قلب الكاتب معمور بحب نبيه الكريم- صلى الله عليه وسلم- ، وهو لا يفتأ يفكر ويعيش هذه اللحظات التي تجمعه به بقلبه وروحه وعقله ، وللحبيب- صلى الله عليه وسلم- من سمات العظمة والجمال ما يرفع منزلته في نفس الكاتب ، ويحرك كوامن الشوق للانتقال إليه، وإخباره بحبه، لذا راح يكثر من ذكره، والصلاة عليه، يقول :

"اللهم ألهمني من تحميدك وتسبيحك، والصلاة على رسولك الأمين ونصيحك، ما يَشْغَلُ لساني، ويثقل ميزاني، ويبسطُ يوم الفزع الأكبر من أماني، اللهم وفِّر حظّي من شفاعته، وأحسنْ عوني على طاعتك وطاعته، واحشرني في عِداد زمرته وجماعته"(٢٣).

هذه العاطفة المتأججة، وهذا الحب الصادق الذي ملك على الكاتب لبه، وعقله، وفكره جعله يتحسر أسفا وحزنا على عدم استطاعته الزيارة ، لبعد المزار. يقول على لسان من صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه السلام : "ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغشيني من نور برهانك ما بهر لبي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جوانحي التهابا، وأوسع جوارحي اضطرابا، وأشعر أملي عودا إلى محلك المعظم وإيابا، وكيف لا أحن إلى قربك ،

---

(٢٢) الذخيرة : ٢٨٦/١/٢ .

(٢٣) السابق : ٢٨٧/١/٢.

وأتهالك في حبك، وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، ولـــولاك مـــا صمت ولا صليت، ولا سعيت ولا طفت"(٢٤).

فنجد الكاتب يحدث على لسان من عاد من زيارة البقاع المقدسة ، وكأنه يسقط ما يدور في خلده ،وما تتمناه نفسه في هذه الكلمات لتكون لسان حاله، فتكشف عما يشعر به نحو نبيه وحبيبه – صلى الله عليه وسلم.

ومن دلائل الصدق في هذه الرسائل– أيضا– قول ابن أبي الخـــصال مخاطبـــا الرسول – صلى الله عليه وسلم– : "كتبته يا واضعَ الإصر والأغلال، ورافع رايـــات الهدى على الضلال، ومبدلنا بالظل من الحَرور، ومخرجَنا من الظلمات إلـــى النـــور، ومُرْوينا من الرحيق المختوم، والحوض الذي آنِيته بعدد النجوم، ومُحظينـــا بـــالنظر إلى الحي القيوم، عن دم يسفح، ونَفَس يلفح، وصدر بأشواقه ملآن يطفح، وعَـــرف عليك من الصلاة ينفح، وأسف إليك يتلهب، وزفرة بأحناءِ الضلوع تجـــئ وتـــذهب، وحَشاشة بعوائق البعد عنك تَنهب" (٢٥).

إن الحب الصادق، وحرارة العاطفة، واضحين أيما وضوح في تـــضاعيف هـــذه العبارات، إذ يهيمن عليها الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب من شدة الوجد ، فالكاتب قد بعث رسالته عن "دم يسفح ، ونفس يلفح"، وصدرٍ بأشواقه لزيـــارة نبيـــه مـــلآن يطفح، وزفرة بأحناءِ الضلوع تجئ وتذهب، وحَشاشة بعوائق البعد عنه تَنهب".

إنه حزين سيطر الحزن عليه ، ذلك لأنه لا يستطيع زيارة تلك المعاهد المباركة، ولا رؤية مقام الرسول الكريم – صلى الله عليه وســـلم – فهـــو مـــشتاق لزيارتـــه ورؤيته، لكن منعته الموانع ، يقول محدثا نفسه الحزينة : "وكيف لا أقضي حزنا، ولا أرسل دموع الوجد والتلهف مُزنا، أم كيف ألذ الحياة، وأؤمل نجاة، ولم أعبـــر إلـــى زيارتك لجة ولا مَوماة، ولا أخطرت في قصدك نفسا أنت منقذها ومنجيها، ولا مَثُلْت

---

(٢٤)السابق : ٢/ ٢٨٧/١.

(٢٥) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٥.

بمعاهدك المُشَهرة، ومشاهدك المُطهرة أحييها، ولا نزلت عن الكُور كرامة للبقعة المقدسة التي ثوبت فيها؟!"(٢٦).

هذه العبارات تفوح فيها صدق العاطفة الدينية وتأججها، وتؤكد حب الكاتب الصادق، وحنينه الآسر للنبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – . هذا الحنين الآسر ، والشوق العارم المسيطر على الكاتب دليل الصدق في المحبة ، وآية الإخلاص في المودة، والعاطفة السامية التي لا يشوبها رياء.

ومن النماذج التي تجلت فيها قيمة الصدق كذلك قول القاضي عياض(٢٧) : "كتبت إليك، –صلى الله عليك– يا خاتم الرسل، وهادي أوضح السبل، ورحمة العالمين، ونعمة الله على المؤمنين، وشارح القلوب والصدور، ومخرجها من الظلمات إلى النور، فإني عبد من أهل ملتك، المتحملين لأمانتك، منهاجك وشرعتك، والملتزمين للحنيفية ملة أبيك إبراهيم، المؤملين النجاة بالدعوة، دعوتك التي خبأ شفاعة لأمتك، ممن أشرق فؤاده بشعاع أنوارك، واهتدى قلبه بعلم منارك، وتاه عقله بحسرة فوات رؤيتك وإبصارك، وهام قلبه في حبك وتوقير عظيم مقدارك، وعدته العوادي عن التشفي بقصد قبرك ومزارك، وقطعت به القواطع عن التشرف بمشاهدة مشاهدك الشريفة وآثارك" (٢٨).

إن ثناء الكاتب على الرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– وذكر شمائله ، وما يتسم به من خصال كريمة– دليل على حبه الصادق ، وحنينه الآسر للرسول الكريم، وهو هنا يسلك مسلك العبد الضعيف المتذلل عسى أن تقضى حاجته ، فيعترف بأنه عبد من أهل الإسلام ، قد أشرق فؤاده بنور الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وهام قلبه بحبه ، وسيطرت عليه الأشواق ، وأمله الذي لا ينقطع ولا يفتأ

---

(٢٦) السابق : ص ٣٦٥. موماة : صحراء. الكور: رحل البعير.

(٢٧) عياض بن موسى بن عمرون ، كان عالما فقيها ، ولي القضاء بالأندلس والمغرب، وله تصانيف عدة دلت على فضله وعلمه ، ت ٥٤٤هـ . انظر ترجمته في : قلائد العقيان: ٦٨٣/٢ ، الإحاطة: ٢٢٢/٤ ، أزهار الرياض: ٢٣/١.

(٢٨) أزهار الرياض : ١٧/٤ .

يفكر به هو أن يسعد برؤية مقامه الشريف، وأن يكحل عينيه بمشاهدة مشاهده وآثاره الكريمة ، لكن منعته الموانع التي حالت دون تحقيق هذه الأمنية العزيزة المنال.

لذا نجد الكاتب وقد راح ينفس عن نفسه المحرومة من المثول أمام قبره الشريف – صلى الله عليه وسلم- وزيارة البقاع المقدسة، ويسقط رغبته التي لا يستطيع تحقيقها في هذه الكلمات التي تفيض بالوجد، والشوق، واللوعة، والحب القوي ، والعاطفة الدينية الصادقة، والحنين الجارف لتنوب عنه في تأدية التحية، ويعبر من خلالها عن عجزه ويرجو أن يُقبل عذره.

ومن ذلك – أيضا- قول ابن الجنان(٢٩) مخاطبا النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم: "ووحقك وهو الحق الأكيد، والقسم الذي يبلغ به المقسم ما يريد، ما وخدت إليك ركاب، إلا وللقلب إثرها التهاب، وللدمع بعدها سح وانسكاب، ويا ليتني ممن يزورك معها ولو على الوجنتين، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين، وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال، ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال، والله –تعالى- يمن على كتابي بالوصول والقبول، وعلي بلحاقي ببركتك ولو بعد طول"(٣٠).

يصور الكاتب حالته النفسية التي سيطر عليها الحزن ، ولفها الشوق إلى رؤيته- صلى الله عليه وسلم، فالعين تسكب العبرات، والقلب يلتهب التهابا حنينا وشوقا إلى رسول الله ، فالغنى دون رؤيته –صلى الله عليه وسلم- بؤس وشقاء وفقر مدقع، والدنيا بما فيها من ملذات وشهوات وجمال ورواء سجون وأغلال ، طالما أنه لم يمتع قلبه بمشاهدة مثوى حبيبه – صلى الله عليه وسلم.

---

(٢٩) هو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري، من أهل مرسية ، كان محدثا ، كاتبا ،شاعرا ،ديِّنا ، استكتبه بعض أمراء الأندلس ت ٦١٠هـ . انظر : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: أبو العباس الغبريني، تحقيق : عادل نويهض ص ٣٤٩ ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م. ، الإحاطة ٣٤٨/٢ ، ونفح الطيب: ٤١٦/٧.

(٣٠) نفح الطيب: ٤٢٥/٧ .

إن صدق العاطفة، وحرارة الشوق، وبراءة الأحاسيس من الرياء، هذا كله قد اجتمع لهذه الرسائل التي لفتها الأشواق الجارفة ، وغلفها الحنين الصادق ، والحب الآسر للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– ، والمثول أمام مقامه الشريف، ولثم ترابه الطاهر، والتمتع بزيارة البقاع المقدسة.

هذه العاطفة الصادقة الجياشة إلى زيارة النبي – صلى الله عليه وسلم– ومشاهدة المعاهد المباركة– دفعت أقلام الكتاب للتعبير عن مشاعرهم، وتصوير لواعج صدورهم نحو بيت الله الحرام، والرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً- التوسل بالرسول - صلى الله عليه وسلم.

توسل الكتاب إلى ربهم بالرسول – صلى الله عليه وسلم – عسى أن يكرمهم بأداء فريضة الحج ومناجاته عند بيته المحرم ، والوقوف عند مقام الرسول المكرم، ومشاهدة الرحاب المقدسة ، كما توسلوا به رجاء عفو الله – تعالى– ومغفرته، وليكون شفيعهم عند ربهم يوم لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه.

والتوسّل من الجوانب النفسية المهمة التي تكشف لنا عن نزعة الكاتب الدينية . فهو يمثل قمة التعبير عن قرب العبد الورع من ربه، يؤيد ذلك خلوّ رجاء الكتاب ودعائهم من مطلب دنيوي، كسعة الرزق ورغد العيش، وما يمكن أن يدخل تحت زخرف الدنيا وزينتها(٣١).

والتوسل بالنبي الكريم – صلى الله عليه وسلم– وطلب شفاعته من مفردات هذه الرسائل ومقوماتها، وأفكارها الرئيسة، بل لعله الغاية التي من أجلها أنشأ بعض الكتاب رسالته.

وممن عني بهذا الجانب النفسي المهم في رسالته– ابن أبي الخصال، إذ يقول : "فأتوسل بك يا رسول الله إلى مصطفيك بالرسالة والوسيلة، ومُختصك بالدرجة

---

(٣١)انظر: بنية قصيدة المولد النبوي في الأندلس والمغرب العربي حتى القرن التاسع الهجري : د. عبد الحليم حسين الهروط ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني : ص ٢١٩ ، س٣٦ ، ع ٨٢ ، ١٤٣٤هـ– ٢٠١٢ م.

الرفيعة والفضيلة، ومُؤتمنك على إقامة حقه، ومُبْتَعِثك بالنور والهدى إلى جميع خلقه، ليُسعدني بجوارك، ويُكرمني بحلول دار هجرتك وأنصارك"(٣٢).

فنرى الكاتب يتوسل إلى ربه بالرسول –صلى الله عليه وسلم– أن يُسعده بجواره، ويكرمه بأداء الفريضة ، وزيارة البقاع المقدسة التي وطئها بقدمه، وهو لا يملك لزيارة هذه البقاع والمثول أمام قبر الرسول الكريم إلا التوسل به عسى الله أن ييسر له الزيارة، وأن يحقق له هذه الأمنية العزيزة المنال، ليكحل عينيه بمرآها ، وتسعد نفسه بسناها.

لقد كانت غاية الأماني التي يتمناها ابن أبي الخصال أن يحج بيت الله الحرام، وأن يختم الله له حياته بهذه الزيارة، ويؤكد ذلك قوله في إحدى رسائله مخاطبا بعض أصدقائه: "ولو قد ملكت وسني ، لخلعت رسني ، وجهدت أن أختم في أول بيت وضع عمُري وزمني ، فأنجدني – أعزك الله– بدعوة تعين ، وترق بها القلوب وتلين"(٣٣).

فهذا دليل قوي يؤكد تشوقه الحار لأداء هذه الفريضة، وحنينه الجارف لزيارة هذه الديار المباركة، والمكث فيها، ومناجاة الله في رحابها، وطلب عفوه ورحمته، والمثول أمام قبر النبي الكريم– صلى الله عليه وسلم.

ونجد كاتبا آخر هو عياض بن موسى ، قد أسرته ذنوبه ، وآلمه تقصيره في حق الله – تعالى– لذا فهو يلجأ إلى الرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– متوسلا به عند ربه ، طالبا العفو والشفاعة متذللا عسى الله أن يغفر له ، ويعفو عن زلاته ، يقول : «فإني عبد من أهل ملتك، المتحملين لأمانتك... مصافح بالإيمان بك وتصديقك، شاهد الجوارح بالتقصير عن أداء حقوق الله وحقوقك، فهو طليح ذنوب ومآثم، وأسير تباعات، وخلّ آثم، أثقلت ظهره مع العاصين خطاياه وآثامه، وانقطعت في التمني مع العادين لياليه وأيامه، وقصرت به عن جد المخلصين أوزاره

---

(٣٢) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٨.

(٣٣) السابق : ص ١٠٨ ، ١٠٩. الرسن: الحبل تقاد به الدابه ، وخلع رسنه إذا دخل في البطالة .

وأجرامه، فلا رجاء له إلا في عفو الله واستشفاعك، ولا خلاص له إلا بالتعلق بحقوك، يوم يكون آدم ومنْ ولدَ تحت لوائك ومن أتباعك» (٣٤).

فالكاتب هنا يصور حالته النفسية السيئة التي وصل إليها، ويطلب من الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – أن يكون شفيعه ، فنفسه قد ضلت ، وعمله ما عاد زكيا، وقد سيطر عليه إحساسه بالذنب، لذا أسرع إلى رسوله الكريم يطلب إحسانه وإجماله عسى الله أن يعفو عنه ويغفر له زلاته، ويتوب عليه ، فلا خلاص له إلا التعلق به، وأن يكون تحت لوائه يوم القيامة.

ونرى الكاتب يضفي على كلماته وتوسله نفحة صوفية من خلال تلذذه بالتذلل للرسول الكريم أملا في نيل شفاعته، وعفو الله – تعالى– ومغفرته، فهو – صلى الله عليه وسلم– كهف التائبين إلى الله، وشفيع المذنبين يوم الدين.

وممن توسل بالرسول – صلى الله عليه وسلم – أيضا – ابن الجنان ، يقول: "فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى، وتوسل لي إلى مَوْلًى بَيَّنَ فضيلتكَ، وتقبَّل وسيلتكَ، في النقلة من هناك إلى هنا، واقبلني وإن كنت زائفا، وأقبل عليَّ وإن أصبحت إلى الإثم متجانفا، فأنت عماد أمتك جميعا وأشتاتا، وشفيعهم أحياء وأمواتا، ومن نأت به الدار، وقعدت بعزمه الأقدار، ثم زار خطه ولفظه، فقد عظم نصيبه من الخير وحظه، وإن لم أكن سابقا، فعسى أن أكون مصليا، وإن لم أعد مقبلا، فلعلي أعد مُوليا"(٣٥).

إن الكاتب يرجو الرسول الكريم أن يكون شفيعه إلى زيارته فهي عنده أفضل الأماني ، ثم هو يشكو إليه ذنوبه وآثامه، ويسأله أن يقبله وإن كان مذنبا، فهو شفيع الأمة، به يلوذ العاصي ، ويستمسك بحبله المقصر ، ثم يعتذر الكاتب عن زيارة الرسول الكريم ببعد الدار ، وحكم الأقدار ، فهو إن لم يزر هذه الأماكن بنفسه

---

(٣٤) أزهار الرياض : ١٧/٤ . طليح : حبيس. خل :الخلة: (بالفتح) الفقر والحاجة ، ورجل خَل: فقير محتاج، والخِل: (بكسر الخاء) الرجل الضعيف الهزيل. لسان العرب(خلل).

(٣٥) نفح الطيب: ٤٢٥/٧ .

وجسده فقد زارها خطه ولفظه ، إذ لم يملك إلا أن يبعث بها مع الركب الراحلين لزيارة هذه البقاع الطاهرة ، وهذا بالنسبة له حظ عظيم ، وخير عميم .

ومن الكتاب من اتجه إلى قبر النبي – صلى الله عليه وسلم– وتوسل به لعل الله أن يشفيه من مرض أعياه أوْ ألمٍ ألمَّ به . فها هو ذا ابن أبي الخصال يكتب رسالة عن رجل من أهل قرطبة يقال له: عبد الله بن عبد الحق الصيرفي، وكان عليل الجسم، ولما وصلت الرسالة إلى القبر الشريف برِئ من زمانته .

يقول في أولها : «إلى البشير النذير ، والسراج المنير ، المخصوص بالتعزيز والتوقير، والبيت المقدس بالتطهير ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، والشفيع إلى رب العالمين . من عتيق هداه ، وزائره بمحبته وهواه ، المستكشف ببركته لبلواه ، المستشفع بشفاعته في دنياه وأخراه، فلان. (من الطويل)

كتابُ وقيذٍ من زمانته مشفي ... بقبر رسول الله أحمد مستشفي

....

عتيقك عبد الله ناداك ضارعا ... وقد أخلص النجوى وأيقن بالعطف

رجاك لضر أعجز الناس كشفه ... ليصدر داعيه بما شاء من كشف

لِرِجْلٍ رمى فيها الزمان فقصرت ... خطاها عن الصف المقدم والزحف

وإني لأرجو أن تعود سوية ... برحمة من يحيي العظام ومن يشفي

وأنت الذي نرجوه حيا وميتا ... لصرف خطوب لا تريع إلى صرف[٣٦] .

وهي أبيات تفيض شوقا وتذللا للنبي الكريم – صلى الله عليه وسلم– وتوسلا به لعل الله يشفى هذا المريض من علته ، وما ألمَّ به ، ونرى فيها التمسك الشديد ، والتذلل الواضح، الذي يشف عن الإيمان العميق الكامن في النفوس المؤمنة، والحب الصادق للنبي – صلى الله عليه وسلم– والتشوق الحار لزيارته ، والمثول أمام مقامه الشريف، والإيمان الكامل بأنه –صلى الله عليه وسلم– هو الوسيلة إلى ربه ليشفيه من سقمه ، ويبرئه من علته.

---

(٣٦) أزهار الرياض : ٤ /٣٠ ، ٣١ .

وقد سلك هذا المسلك غيره من الأدباء ، فأرسلوا رسائلهم شعرا إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– يبثون فيها أشواقهم وحنينهم إليه، وما تجيش به نفوسهم نحو نبيهم عليه الصلاة والسلام (٣٧).

والملاحظ أن توسل الكتاب بنبيهم –صلى الله عليه وسلم– يتسم بنغمة حزينة، وبالأسى في وسيلة التعبير عنه، وقد حرص الكتاب على إبرازها، بوصفها عنصراً رئيساً من عناصر التأثير في المتلقي؛ وغالباً ما يستدعي الاستعطافَ والتفاعلَ مع الكاتب، ومعاناته الذاتية (٣٨).

إن التوسل بالنبي الكريم– صلى الله عليه وسلم– بات لبنة أساسية من لبنات هذه الرسائل المبنية عليها والمؤسسة لها ، وهي تؤكد حب الكتاب الصادق للرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– وإيمانهم العميق بمكانته عند ربه ، وتكشف عن تطلعهم المسيطر عليهم إلى زيارته ، وتشوقهم الجارف إلى المثول أمام قبره الشريف.

رابعا- الشكوى والاستغاثة

الشكوى هي الثوب الذي يضم أوجاع المرء، يلف فيه أشجانه وأحزانه، وهمومه وآلامه، وهي عاطفة تعكس ما تنطوي عليه نفس المرء من آلام وأحزان، وتكشف عن حالته النفسية، وتؤكد ضعفه وعجزه أمام طاقة قوية لا يقدر على الصبر عليها فضلا عن ردها، والشكوى متنفس المرء ومرآته التي تعكس ما يشعر به من آلام ، وما يحلم به من آمال.

والمتأمل في هذه الرسائل يجد أنها بمثابة منابر يتخذها الكتاب تعبيرا عما يجول في خواطرهم ، وما يجيش في نفوسهم . فقد وجد الكتاب في الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – الملاذ الآمن والمغيث لهم من شكواهم، فراحوا يبثون إليه ما يعتمل في نفوسهم من آلام وآمال ، ويستغيثون به عسى الله أن يزيح البلوى، ويكشف الغمة ، ويفرج الكربة

---

(٣٧) انظر: السابق : ٤/ ٣١ ، ٣٢، ٣٣ .

(٣٨) انظر: بنية قصيدة المولد النبوي في الأندلس والمغرب: ص ٢٢٦ .

وبواعث الشكوى في هذه الرسائل كثيرة منها : الحاجة، وقلة الوَفْر، ومن نماذج ذلك قول ابن أبي الخصال: "لو أوتيتُ يا رسول الله سؤلي، لسبقت إليك كتابي ورسولي، لكنْ قل الوفر، واستقل السفر، وغادروني حرضا، ولسهام الوجد والأسى غرضا، أُتبعُهم نفَسًا لا يؤوب، وقلبا يستخفه القلق والوثوب، فأتشبث بهم تشبث الأسير بالطليق، وألحظُهم لحظ السقيم للمفيق ، فلم أملك يا رسول الله إلا رقعةً تشكو بث التبريح، وتحية خفيفة المحمل طيبة الريح، تتأرج – يا رسول الله– بأرجائك، وتتدرَّج إلى قبولك ورجائك"(٣٩).

فنجد الكاتب يشكو الحاجة، وقلة ذات اليد ، إذ لم يستطع اللحاق بالركب الراحلين للحجاز ، لذا ألم به الإعياء والسقم ، ولفته الأشجان والحزن الشديد الذي سيطر عليه ومنعه اللحاق بالحجيج ، فهو مع ما يشعر به من ألم شديد، وحزن طويل أثر في نفسه يتطلع إلى الركب الراحلين للحج، فنفسه كأنها تسير معهم، وروحه لا تتركهم، إنه معهم بروحه وقلبه يعيش هذه اللحظات التي يمني نفسه بها، وهذه الرحلة المباركة التي يتمناها، وهو يتشبث بهم تشبث الأسير بالطليق، ويتعلق بهم تعلق الغريق بطوق النجاة.

ولم يكن من الكاتب مع شكواه وعدم استطاعته إلا رقعة يبعث بها مع ركب الحجيج يهديها للرسول –صلى الله عليه وسلم– تؤكد حرصه الشديد على أداء الفريضة ، وتشف عن انطباع النفس نحو الرسول الكريم والبقاع المقدسة، وغبطة الحجيج على أداء المناسك ، والتمتع بمشاهدة معاهد الجلال والجمال ، وطلب الدعاء له في هذه الرحاب الطاهرة .

ومن بواعث الشكوى في هذه الرسائل أيضا: كثرة الذنوب وثقلها، وبعد الديار؛ إذ نجد الكاتب يشكو ذنوبه إلى النبي– صلى الله عليه وسلم– فيلوذ بجنابه، ويستغيث به ، ويطلب العفو عسى الله أن يغفر له ذنوبه ، وأن يمحو عنه سيئاته، وأن ييسر له أداء الفريضة.

---

(٣٩) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٧. الحرض :الكالُّ المُعْيِي ، القريب من الموت نتيجة السقم أو الحزن. التبريح:برح به الشوق : أضناه وأتعبه.

ومن ذلك قول ابن الجنان يشكو ذنوبه التي أثقلته عن الزيارة: "كتبته يا رسول الله وقد رحل المجدون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت، وبيني وبين لثم ثراك النبوي ولمح سناك المحمدي مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه بماء توبة، وستر وصم عيبه بظهر غيبه، فكلما رمت المتاب رددت، وكلما يممت الباب صددت، وقد أمرنا الله تعالى بالمجيء إليك، والوفادة عليك، ومن لي بذلك – يا رسول الله– والآثام تنئي وتبعد، والأيام لا تدني ولا تسعد، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المقيم المقعد"(٤٠).

فنجد الكاتب يتحسر على عدم استطاعته اللحاق بركب الراحلين إلى الحج والزيارة، فبعد الديار قد حال بينه وبين ذلك ، ثم يشكو الذنوب والمعاصي فهي المانع الأكبر الذي أثقله عن الزيارة، ومنعه تحقيق هذه الأمنية العزيزة المنال، ، فالآثام والذنوب قد سيطرت عليه وأبقته فلم يستطع الوفادة ، وهو يستغيث بالنبي – صلى الله عليه وسلم– ويطمع في القرب منه، والتمسك بحبله، لما تكنه نفسه من حب صادق وأشواق جارفة عسى الله أن يغفر له ذنوبه، ويمحو له تقصيره في حق الله وحق نبيه.

وقد استطاع الكاتب أن يرسم صورة للأندلسي الذي يحن إلى أرض الحجاز ويمني نفسه بزيارة هذه البقاع الطاهرة، ولا ينفكُ يلهَجُ بذكرِها على طول المسافات وبعد الديار ، وبذلك يسبر الكاتب أغوار النفوس ويصوّرها تصويراً صادقاً، ويكشف لنا عما تكنه نفسه من آلام وأحزان لعدم استطاعته أداء الفريضة

ومن البواعث التي دفعت الكتاب إلى الشكوى والاستغاثة بالرسول – صلى الله عليه وسلم–: ضعف الأمة وهوانها، وتكالب الأعداء عليها من كل جانب، يريدون القضاء عليها، وانتزاع شوكتها، والنيل منها؛ ومن ذلك قول ابن الخطيب عن

---

(٤٠) نفح الطيب: ٤٢٥/٧.

الخليفة أبي الحجاج يوسف [٤١] يشكو تكالب الأعداء وانشغاله بمجاهدتهم عن الحج وزيارة الرسول – صلى الله عليه وسلم : "وأنى لما عاقتني عن زيارتك العوائق وأن كان شغلي عنك بك، وعدتني الأعداء فيك عن وصل سببي بسببك، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه، وعدو تتكاثف أفواجه، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه، في طائفة من المؤمنين بك وطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، ورفعوا إلى مصارختك رءوسهم، واستعذبوا في مرضاه الله –تعالى– ومرضاتك بؤسهم، يطيرون من هيعة إلى أخرى، ويلتفتون والمخاوف عن يمنى ويسرى"[٤٢].

يعتذر الكاتب ويقدم الأسباب التي جعلت سلطانه يتخلف عن شهود مقامه وحضرته – صلى الله عليه وسلم– ، فيشكو بعد الديار الأندلسية عن الديار الحجازية، وانشغال الخليفة بجهاد أعداء الإسلام ، والمرابطة في تلك الديار النائية بجيش الإسلام الذي وطن نفسه على الصبر والجهاد للدفاع عن المسلمين ونصرة الإسلام ومواجهة جيوش أهل الصليب والكفر– دمرهم الله.

ثم راح الكاتب يصف جيش الأعداء ويشكو كثرتهم ، ويستغيث بالنبي الكريم – صلى الله عليهم وسلم– ، ويشكو إليه تكالب الأعداء عليهم وهم في هذه البلاد البعيدة لا ناصر لهم إلا الله، يقول :"ويقارعون – يعني المجاهدين– وهم الفئة القليلة جموعا كجموع قيصر وكسرى، لا يبلغون من عدو هو الذر عند انتشاره عشر معشاره، قد باعوا من الله – تعالى– الحياة الدنيا، لان تكون كلمة الله –تعالى– هي العليا، فيا له من سرب مروع، وصريخ إلا منك ممنوع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصبية حمر الحواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل، والصليب قد

---

(٤١) يوسف بن إسماعيل بن فرج الأنصاري ، سابع ملوك بني نصر ، ت ٧٥٥هـ . انظر في ترجمته: اللمحة البدرية في الدولة النصرية : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق: محب الدين الخطيب ص ٨٩ وما بعدها ، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٧هـ.

(٤٢) أزهار الرياض : ٤٢/٤ ، نفح الطيب : ٣٥٨/٦. عجاجه : العَجاج : (بفتح العين) الغبار . الهيعة : الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو، والهيعة : الحيرة.

تمطى فمد ذراعيه، ورفعت الأطماع بضبعيه، وقد حجبت بالقتام السماء، وتلاطمت أمواج الحديد، والبأس الشديد، فالتقى الماء، ولم يبق إلا الذماء، وعلى ذلك فما ضعفت البصائر، ولا ساءت الظنون، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب، حتى تكاد تشاهده العيون، إلى أن نلقاك غدا إن شاء الله – تعالى– وقد أبلينا العذر، وأرغمنا الكفر، وأعملنا في سبيل الله – تعالى– وسبيلك البيض والسمر"(٤٣).

إن الشكوى هنا تتمثل في كثرة الأعداء وأهل الكفر وتكالبهم على ديار المسلمين وأهل الإيمان ، والكاتب– وهو الغيور على دينه، المهموم لحال أمته– يكشف عما تنطوي عليه نفسه، وما يحمله من هم بين جنبيه، فيشكو له ما يلاقيه المسلمون من الفتك، والبطش، والقتل، والتشريد في تلك الديار القصية على يد أهل الكفر والعدوان الباغية.

والكاتب يتوسل في ضراعة وخشية وتذلل بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– إلى ربه ، ويستغيث به ويطلب منه المدد الروحي والمعنوي، عسى الله أن يكشف عنهم المحنة ، وينقذهم من هذه الويلات الصعبة، ويرد عنهم كيد الكائدين، وينصرهم عليهم عدوهم.

ويتجلى الجانب النفسي عند ابن الخطيب فيما يحمله من هم وحزن بين جنبيه وقلق شديد من تكالب الأعداء وكثرتهم، فنجد نفسا قد سيطر عليها الحزن، ولفتها الهموم ، لذا فهو يشكو للرسول –صلى الله عليه وسلم– ويستغيث به في الوقت نفسه، فيصور في رسالته البأس الشديد الذي أحاط بالمسلمين في الأندلس من الهم المقيم، والقلق والعذاب تصويرا دقيقا كأننا نراه أمام أعيننا، وهو تصوير يشي بفداحة النازلة ، ويكشف عن شدة الكرب الذي ألمّ بالمسلمين.

ثم نجد الكاتب بعد ذلك يستغيث بالرسول– صلى الله عليه وسلم– على لسان الخليفة أن يرحم غربته في هذه البلاد النائية ، وأن يقبل عذره لانشغاله بمجاهدة الأعداء، ويشكو الغربة والضعف والهوان الذي أحاط بالمسلمين في هذه الديار

---

(٤٣)أزهار الرياض : ٤/٤٢. مروع : مفزع. المناصل : جمع منصل وهو السيف.الذماء: بقية الروح.

القصية، فيجهر بهذا النداء الفاجع ، والدعاء المدوي في تضرع وتذلل: "يا غياث الأمة، وغمام الرحمة، ارحم غربتي وانقطاعي، وتغمد بطولك قصر باعي، وقو على هيبتك خور طباعي، فكم جزت من لج مهول، وجبت من حزون وسهول، وقابل بالقبول نيابتي، وعجل بالرضا إجابتي، ومعلوم من كمال تلك الشيم، وسجايا تيك الديم، أن لا يخيب قصد من حط بفنائها، ولا يظمأ وارد أكب على إنائها"(٤٤).

ثم يجدد الكاتب الرجاء والدعاء، وطلب العون الروحي والمعنوي، ويشكو الغربة، ويستغيث بالرسول – صلى الله عليه وسلم– فيقول : "فلا تنسني ومن بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك، على أيدي خيار أمتك، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك، نعوذ بوجه ربك من إغفالك، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة، ونرتقب من محيا قبولك لمحة، ندافع بها عدوا طغى وبغى، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى، فمواقف التمحيص قد أعيت من كتب وورخ، والبحر قد اصمت من استصرخ، والطاغية في العدوان مستبصر، والعدو محلق، والولي مقصر، وبجاهك ندفع ما لا نطيق، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق، فلا تفردنا ولا تهملنا"(٤٥).

لقد كان أعداء الإسلام من أبناء الصليب يتحينون الفرصة تلو الأخرى للقضاء على شوكة المسلمين في الأندلس ، والنيل منهم والقضاء على دولتهم ، والكاتب يشكو للنبي – صلى الله عليه وسلم– طغيان الأعداء، وبغيهم وفتكهم بالمسلمين ، ويشكو غربتهم في هذه البلاد البعيدة ، ويطلب منه المدد الروحي فيدعو الله أن يخلِّص المسلمين من ذلك الخطر الداهم الذي يحيق بالمسلمين من كل جانب ، ويستصرخ بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ويلوذ به عسى الله أن يفرج عنهم الكربة، ويكشف الغمة ، ويؤنسهم في الغربة، وينصرهم على أهل الكفر وأنصار الصليب – دمرهم الله.

وفي رسالة أخرى يجدد ابن الخطيب الشكوى من تكالب الأعداء وكثرتهم أيضا ويلوذ بالرسول– صلى الله عليه وسلم– مخاطبا إياه، طالبا المدد المعنوي،

---

(٤٤) السابق : ٤/٤٣.

(٤٥) السابق ٤/٤٤ .

فيقول:"حيث مصاف الجهاد في سبيل الله وسبيلك قد ظللها القتام، وشهبان الأسنة أطلعها منه الإعتام وأسواق بيع النفوس من الله – تعالى– قد تعدد بها الأيامى والأيتام ... وحيث الإسلام من عدوه المكايد بمنزلة قطرة من عارض غمام، وحصاه من ثبير أو شمام، وقد سدت الطريق، وأسلم الفراق الفريق، وأغص الريق، ويئس من الساحل الغريق"(٤٦).

لقد اتسع الخرق ، وخيم على الأمة المسلمة في الأندلس الكرب والهم، وعصفت بهم ريح الضعف والهوان العاتية ، والكاتب يستنجد بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– ويلوذ به عسى الله أن يفرج كربتهم، ويكشف عنهم البلاء، ويزيل ما حل بهم من ضعف ، وينصرهم على أعداء الإسلام.

إنني أشعر بالألم الذي خيم على نفس الكاتب، والحزن الذي سيطر عليه لما حل بالمسلمين في الأندلس، وأحس بنفسيته المنكسرة نحو الإسلام، وحزنه الواضح لما ألم بالمسلمين وقد تكالبت عليهم دولة الصليب تريد القضاء على شوكتهم، بل ومحوهم من هذه الديار ، لذا فهو يشكو إلى نبيه الكريم – صلى الله عليه وسلم– نوائب الدهر،، والهجمات المتكررة على ديار المسلمين من قبل أنصار الصليب – دمرهم الله– وما حل بالمسلمين من ضعف وهوان عسى الله أن ينصرهم ويخذل أعداءهم ، ويرفع راية الإسلام والمسلمين في هذه الديار البعيدة.

لقد تخطى ابن الخطيب الهموم الفردية أو الشكوى الفردية إلى التفكير في هموم الأمة، فراح يشكو للرسول – صلى الله عليه وسلم– ما تعانيه الأمة المسلمة من ضعف وهوان، وانكسار أمام أعداء الإسلام الذي يتحينون الفرصة للقضاء على شوكة المسلمين ودولتهم، ومحوها من التاريخ إن استطاعوا.

---

(٤٦) السابق : ٤/ ٥٢ ، ونفح الطيب ٣٦٥/٦ . ثبير وشمام : جبلان.

إن الكتاب وجدوا في الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – الملاذ الآمن والمغيث لهم من شكواهم، فراحوا يبثون إليه ما يعتمل في نفوسهم من آلام وآمال ، ويستغيثون به عسى الله أن يزيح البلوى، ويكشف الغمة ، ويفرج الكربة (٤٧).

خامسا- الإشادة بخصال الرسول – صلى الله عليه وسلم-، والثناء عليه، والتغني بشمائله، وذكر معجزاته.

للرسول – صلى الله عليه وسلم – مكانة سامية في النفوس ، فهو الرحمة المهداة من الله تعالى لعباده ، وهو مخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهو خير النبيين، وإمام المرسلين ، ورحمة الله – تعالى- للعالمين وشفيع المسلمين بإذن ربهم في يوم الدين .

وقد عبر الكتاب في هذه الرسائل عن حبهم الصادق ، وحنينهم الآسر إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وزيارة مقامه الشريف – كما أشرنا سابقا في الحديث عن الشوق والحنين.

ومن هذا المنطلق وجدت الكتاب يثنون على الرسول – صلى الله عليه وسلم- أحسن الثناء، وأفضله وأسماه، وأكمله وأزكاه، فبرز في هذه الرسائل بشكل لافت الثناء الواضح، والإشادة بصفات النبي – صلى الله عليه وسلم – والتغني بشمائله، وذكر معجزاته .

---

(٤٧) كما كان من بواعث الشكوى: المرض وعدم الاستطاعة ؛ إذ يشكو الكاتب مرضه الذي أعياه للرسول –صلى الله عليه وسلم- ويستغيث به، عسى الله أن يشفيه، ويكشف ما به من سقم. ومن ذلك رسالة لابن أبي الخصال كتبها عن رجل من أهل قرطبة يقال له: عبد الله بن عبد الحق الصيرفي. انظر : أزهار الرياض: ٤ /٣٠ ، ٣١ .
كما سجل الكتاب شكواهم وحنينهم إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم- في رسائل شعرية ؛ من ذلك رسالة شعرية لأبي زيد الفزازي (ت ٦٢٧هـ) بعث بها مع ركب الحجيج يشكو فيها ذنوبه التي أثقلته عن اللحاق بهم ويستغيث بالرسول – صلى الله عليه وسلم- . انظر : آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي(نصوص أدبية من القرن الهجري السابع جمعها بعض تلاميذه في حياته): تقديم وتحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة ص ٣٧ ، دار قتيبة ، بيروت ط١/١٤١٢هـ- ١٩٩١م. أزهار الرياض : ٤ /٣١ ، ٣٢ .

والملاحظ أنهم أكثروا من هذا الجانب وأطالوا في ثنائهم عليه –صلى الله عليه وسلم– والصلاة عليه، وذكر فضائله وشمائله، وقد أجادوا وأحسنوا، وأثبتوا محبتهم لنبيهم، وقد استحوذ الثناء على جزء كبير من الرسالة ، وجاء ذلك في أول الرسالة، وآخرها، ووسطها، بل في جميع أجزائها.

وقد رأيت أن الكتاب اتخذوا من الثناء على الرسول – صلى الله عليه وسلم– وسيلة للتقرّب إلى الله – عزّ وجلّ– بالثناء على رسوله والصلاة عليه، توسّلاً به وطمعا في شفاعته ، واستغفارا لما بدر من هفوات، عسى الله أن يغفر الذنوب، ويكفر السيئات.

ومن نماذج ذلك قول ابن أبي الخصال في مستهل رسالته : "إلى الرءوف الرحيم ،الرسولِ الكريم، ذي الخُلُقِ العظيم، والحسَبِ الصَّميم، والصَّفح الجميلِ، والمَن المُرْبِي على التأميل، صريحِ الصريح، ورَقُوءِ دمِ الذبيح ، المخصوص بالمقام المحمود، والحوض المورود، خطيبِ الأنبياء وإمامهم في اليوم المشهود، المكين، الأمين، الذي ليس على الغيب بضنين...الذي جُعلت له الأرض مسجدا وطهورا، وأُحلت له الغنائمُ وكانت حِجرا مَحْجُورا، ونصر بالرعب شهورا، وأوتيَ جوامعَ الكلم فانتظمت لفظته سطورا، وبُعث إلى الأحمر والأسود فضلا كان له مذخورا، ونُسخت بملته الملل إما مؤمنا وإما كفورا، وأنزل عليه القرآن هدى ونورا، فأحيا نفوسا وشفى صدورا"(٤٨) ....الخ.

فنجد الكاتب يثني على الرسول الكريم ثناء حسنا، فيذكر صفاته وشمائله الكريمة وما فضل به على غيره من الأنبياء والمرسلين، وهي صفات وفضائل سجلها القرآن الكريم ، وأثبتتها الأحاديث الشريفة ، والسيرة النبوية الكريمة.

ثم يحدثنا الكاتب بعد ذلك عن حسبه الشريف– صلى الله عليه وسلم– فيقول: "أبو القاسم خِيرة الخير، وسيِّد البشر، المصطفى من أكرم العِتَر، جاشم المَجَاشم ، وذؤابة بني هاشم، هامة العرب، ومنتهى فخر الأبعد والأقرب، الحاشر العاقب، ذو

---

(٤٨)رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٢.

المجد الثاقب، وزهر المآثر والمناقب، الذي فاز المحسنون بطاعته، واستُنقذ المذنبون بشفاعته، صلى الله عليه وسلم" (٤٩).

فهو – صلى الله عليه وسلم– ذو الحسب الشريف، والأرومة الكريمة ، المصطفى من خيار من خيار ، ولا يخفى أن الكاتب انتزع هذه الصفات والشمائل من الأحاديث الشريفة، وكتب السيرة النبوية التي تحدثت عن شمائل الرسول – صلى الله عليه وسلم.

ومن نماذج ذلك أيضا– قول القاضي عياض: مشيرا إلى بعض معجزاته – صلى الله عليه وسلم– : "المتحدي بالمعجزات جميع البشر، المبعوث بجوامع الكلم، الشاهد على جميع الأمم، منير الأفئدة بأنوار الحكم ، الذي شرح صدره، فمُلِيء إيمانا وحكمة، من لم يجعل الله به علينا في الدين من حرج، وأسرى به من الفرش إلى العرش وعرج، واستسقى الغمام بوجهه فهمع، وانشق القمر لتصديقه نصفين ثم اجتمع، وعاد نور الشمس بدعائه لشروقه بعد الأفول ورجع، وانفجر الماء من بين أصابعه ونبع، وسجد البعير لهيبته وخضع، وسكن ثبير لركضته حين تزعزع، وحن الجذع حنين العشار لفرقته وخشع"(٥٠).

فنجد الكاتب يشير إلى بعض معجزاته – صلى الله عليه وسلم– فيذكر أن هذه المعجزات تحدى بها البشر جميعا ، وهي دليل نبوته – صلى الله عليه وسلم –، وتأييد من الله –تعالى– لرسوله الكريم.

وقد عدد الكاتب معجزات كثيرة منها : معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وتفجر الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع، وغيرها من المعجزات، لكن حديثه جاء في صورة إشارات سريعة فلم يقف مع واحدة منها بالبسط والتحليل، وكأنه ينثر أزهارا عطرة يفوح عطرها في جوانب رسالته.

وعلى هذا المنوال يسير القاضي عياض في رسالته فيكثر من ذكر شمائله وما فضله الله – تعالى– به على غيره الأنبياء والمرسلين ، وعلى الخلق أجمعين ،

---

(٤٩) السابق ٣٦٣ .

(٥٠) أزهار الرياض : ٤/ ١٥ ، ١٦ .

ويذكر ما قاساه لنشر الدعوة ، ثم يصلي عليه عدد نجوم الأفق وقطرات المطر (٥١).

وقد سطر ابن الجنان رسالة كاملة في شرف المصطفى – صلى الله عليه وسلم– والثناء عليه، والإشادة بفضائله، والحديث عن بعثته ، وأثر ذلك في البشرية، وذكر معجزاته ، وفضله على غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين

فمن ذلك قوله في بعثته –صلى الله عليه وسلم –، ودعوته : "وأزال الجهالة وأزاح الضلالة، وكسر منصوب الأوثان، ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان وبنى الملة على قواعدها الخمس، وأحيا دين إبراهيم وكان رفاتا بالرمس، فرفلت الحنيفية البيضاء في بردة الجدة، وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودة، وانتشرت الرحمة بنبيها، ومطرت المرحمة من سحب حيها، وافتنت الآيات الباقيات البينات في مساقها واتساقها، وإشراقها في آفاقها وائتلاقها"(٥٢).

فالرسول الكريم هو الذي أخرج الناس من ظلما ت الكفر إلى نور الإيمان ، وأحيى القلوب الميتة بدخولها تحت راية الإسلام ، وحملها لواء الحق ، وأنزل الله – تعالى– عليه القرآن فكان الشمس التي أشرقت بعد غروب طويل ، والنور الذي قضي على ظلام الليل الدامس ، فشفى صدورا طبع عليها الكفر، وأحيى قلوبا أماتها الضلال.

إن الثناء وذكر فضائل النبي – صلى الله عليه وسلم– والتغني بشمائله وخصاله الكريمة– بات لبنة أساسية من لبنات هذه الرسائل، وفكرة رئيسة من الأفكار التي تقوم عليها ولا تكتمل إلا بها، وقد اتخذه الكتاب وسيلة للتقرّب إلى الله –عزّ وجلّ– بالثناء على رسوله الكريم، توسّلاً به وطمعا في شفاعته ، واستغفارا لما بدر من هفوات، عسى الله أن يغفر الذنوب، ويعفو عن الزلات.

وهو يؤكد تعلق الكتاب الواضح بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم–، وشوقهم إليه، ورغبة نفوسهم إلى زيارته، لذا راحوا يرطبون ألسنتهم بذكره

---

(٥١) انظر : السابق : ٤/ ١٦ ، ١٧ .

(٥٢) نفح الطيب ٤٢٢/٦ ، ٤٢٣ .

والصلاة عليه، والتغني بخصاله وشمائله، رغبة في إثبات محبتهم ، وشوقهم إليـــه، واستشفاعا به، وطلبا لنيل الأجر والثواب العظيم من الله – تعالى– .

الفصل الثاني: البناء الفني

أولا– الابتداء.

مفتتح الرسالة هي أول ما يطالعها المرسل إليه ، وهي لبنة الأســـاس الأولـــى التي تبنى عليها، ولذا يلزم أن تكون من احتفال الكاتب بالقدر الذي يتناسب ودورها في تحريك خاطر المتلقي إلى الوجهة التي يريدها عمله الكتابي ، فمتى كان الابتـــداء حسناً شدّ انتباه المتلقي ، وكان أدعى إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

لذا اهتم النقاد اهتماما واسعا بالفواتح، ووضعوا لها القواعد والأصـــول التـــي تحكمها ، يقول بعضهم : "أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل البيان"(٥٣).

ويذكر صاحب "مواد البيان" ما يجب على الكاتب فعله إزاء مقدماته ، فيشير إلى أنّه يجب عليه أن يُعنى بهذه المقدمات من جهتي اللفظ والمعنى ، يقـــول : "فتـــدبير هذه المقدمات من جهة ألفاظها ومن جهة معانيها ، فأمّا ألفاظها فيجب أن تُتخير من أوجز الألفاظ، وأشرفها، وألطفها، وأخفها... وأمَّا معانيها فيجب أن يودعَها كل مـــا يحتاج إلى الإبانة عنه ؛ لتدل بصدورها على أعجازها، وبمباديها على تواليهـــا، ولا يخفى عن سامعها ما ينتهي إلى خاتمتها (٥٤).

ويشير ابن الأثير إلى الحكمة من تجويـــد الابتـــداء فيقـــول : "وإنّمـــا خـــصت الابتداءات بالاختيار لأنّها أول ما يطرق السمع من الكلام ، فإنّه متى كـــان الابتـــداء

---

(٥٣)كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص ٤٣١ عيسى البابي الحلبي ، القـــاهرة ١٣٧١هـــ – ١٩٥٢م.

(٥٤) مواد البيان : علي بن خلف الكاتب ، تحقيق : د. حسين عبـــد اللطيـــف ص ١٢٢ ، منشورات جامعة الفاتح ، طرابلس ١٩٨٢م.

لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه ، وتزايدت البواعث على الإصغاء إليه(٥٥).

فينبغي على الكاتب أن يتأنق في مستهل كلامه حتى يكون أعذب لفظًا ، وأحسن سبكاً ، وأصح معنى حتى يلقى القبول لدى المتلقي .

وقد وجدت التزام الكتاب بهذه الشروط حيث استهل الكتاب بالبسملة، والصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم–، وغير ذلك، وكلها تدخل في الابتداءات الحسنة التي تلقى القبول. ومنها:

أ– البسملة مشفوعة بالصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم.

كما اشترط النقاد في الابتداء الحسن والجودة ، اشترطوا أن يستهل الكتاب رسائلهم بالبسملة ، ولعل ذلك اعتمادا على قول النبي – صلى الله عليه وسلم– "كل كلام أو أمر ذي بالٍ لا يفتح بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فهو أبتر أو قال أقطع"(٥٦).

لذا فقد استهل الكتاب رسائلهم بالبسملة تبركا أو طلبا للأجر ، والمتأمل في هذه الرسائل يجد أن بعض الكتاب قد استهل رسالته بالبسملة وهذا قليل؛ ومن ذلك قول ابن أبي الخصال : "بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله. إلى الرءوف الرحيم، الرسولِ الكريم، ذي الخُلُقِ العظيم، والحسَبِ الصَّميم، والصَّفح الجميلِ...."(٥٧)

ومن الرسائل التي بدأت بالبسملة– أيضا– ثم الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم– رسالة كتبها ابن أبي الخصال عن ابن عبد الحق الصيرفي ، يقول:

---

(٥٥) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور : ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق: د: مصطفى جواد ، د : جميل سعيد ١٨٨، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، العراق ١٣٥٧هـ – ١٩٥٦م .

(٥٦) المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل : تحقيق : أحمد محمد شاكر: ٣٩٥/٨ ، حديث رقم (٨٦٩٧) ،دار الحديث، القاهرة: الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥م.

(٥٧) وردت الرسالة بالبسملة والصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم– في أزهار الرياض ٢١/٤ ، ووردت في رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٢ بدون البسملة .

"بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد ، إلى البشير النذير والسراج المنير المخصوص بالتعزيز والتوقير، والبيت المقدس بالتطهير، خاتم النبيين" (٥٨).

وفي تقديري أن عدم اشتمال بعض الرسائل على (البسملة) ليس من صنع الكاتب صاحب الرسالة، بل من صنع جامعي الرسائل ، فقد كانت الرسائل "تتبع المنهج الذي سارت عليه في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم– فكانت تتصدرها البسملة ... وقد ترد بعض الرسائل خالية من البسملة ولكن هذا يجيء من باب اختصار المؤرخين للرسائل، حيث إن افتتاح الرسائل بالبسملة أمر معروف لا حاجة إلى تأكيده ، وقد كانت الروح الدينية مسيطرة على الجميع ، وكان كل حاكم أو والٍ يعلن أنه المدافع عن الإسلام والمتمسك بتعاليمه، فلم يكن من الممكن أن يترك كاتب إيراد البسملة في صدر الرسالة"(٥٩). فما بالنا إذا كانت هذه الرسائل مرسلة إلى الحضرة النبوية، والبقاع المقدسة ، إن هذا أولى وأوفق!.

ب– الاستهلال بالصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم–:

كان الكتاب لا يغفلون في رسائلهم الصلاة والسلام على الرسول الكريم، فكان الكاتب يكثر في مستهلها من الصلاة السلام، والثناء على الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم–. ويشيد بشمائله وخصاله .

وهذا كثير في هذه الرسائل؛ ومن ذلك قول ابن الجد: "صلوات الله على خاتم الرسل، وناهج السبل، وناسخ جميع الملل، ومجلي الظلم والظلم، ومحيى القلوب بنور الهدى والحكم، ومقلد النذارة والسفارة إلى كواف الأمم، وعليه من لطائف التسليم ما يربي على عدد النجوم، ويزري بالمسك المختوم، ويقتضي باتصاله واحتفاله رضي الحي القيوم"(٦٠).

---

(٥٨) أزهار الرياض : ٢٩/٤.

(٥٩) الرسائل في مصر الإسلامية إلى نهاية الدولة الإخشيدية : د: أحمد أمين مصطفى ص ٢٥٥ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م.

(٦٠) الذخيرة: ٢٨٦/١/٢ .

وقول ابن الجنان: "السلام العميم الكريم، والرحمة التي لا تبرح ولا تريم، والبركة التي أولها الصلاة وآخرها التسليم، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة، المؤيدة بالعصمة والأيد والقوة، ومثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صفا ومروة، مقام سيد العالمين طرا، وهاديهم عبدا وحرا"(٦١).

والأمثلة على ذلك كثيرة؛ وهي تؤكد تمسك الكتاب بإثبات الصلاة والسلام على الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- في مستهل رسائلهم التماسا للبركة ، ولإثبات تعلقهم به ، ومحبتهم له، ولأن ذلك مما يجذب المتلقي، ويجعله يقبل على قراءة الرسالة.

ج- الاستهلال بالشعر

كما استهل الكتاب رسائلهم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- بالشعر؛ والاستهلال بالشعر من الابتداءات التي أشاد بها النقاد ، يقول الكلاعي: "وقد يستفتحون رسائلهم بالمنظوم... وكان المجيد كثيرا ما يضمن في رسائله أشعاره، وأشعار غيره"(٦٢). ويقول ابن الأثير: "ومن محاسن هذا الباب - يعني باب الافتتاحات- أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم، أو بخبر من الأخبار النبوية ، أو ببيت من الشعر يبني الكتاب عليه"(٦٣).

ومن ذلك قول ابن الخطيب في مستهل رسالته إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم-:

إذا فاتني ظل الحمى ونعيمه ... فحسب فؤادي أن يهب نسيمه(٦٤)

---

(٦١) نفح الطيب: ٤٢٤/٧ .

(٦٢) إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس : ابن عبد الغفور الكلاعي ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ص ٦٩ ، ٧١ ، عالم الكتب ، بيروت ، الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(٦٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي د. بدوي طبانة ١١٨/٣، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.

(٦٤) الإحاطة : ٥٢٧/٤ ، أزهار الرياض : ٣٥/٤ ، ونفح الطيب: ٣٥٤/٦ .

وقوله في رسالة أخرى يخاطبه – صلى الله عليه وسلم–:

دعــاكَ باقــصى المَغْــرِبَيْنْ غريــبُ وأنــتَ علــى بُعْــدِ المــزارِ قَريــبُ(٦٥)

هذا الشعر من جنس الرسالة وفي موضوعها، وقد تعاون معها في التعبير عن غرض الكاتب، والكشف عما يدور في خلده ، وما يجيش في صدره نحو الرسول – صلى الله عليه وسلم.

والاستهلال بالشعر من الابتداءات الحسنة، إذ نجد الكاتب يستهل بــه لإثبــات مقدرته الشعرية، وفي هذا ما يضفى على نثره القوة والأصالة، والقيمــة الفنيــة ، ويؤدي إلى إقناع القارئ وإمتاعه، الإقناع عن طريق النثر ، لأن "النثر فــي الأصــل لغة العقل، يقرر قضاياه، ويسجل نتائجه"(٦٦)، والإمتاع عن طريق الشعر، "والــشعر لغة العاطفة – غالبا– يصورها ويثيرها"(٦٧).

د– الاستهلال بلفظة مشتقة من مادة الكتابة.

يقول الكلاعي: "فمما توصلوا به من الألفاظ في ابتداء الخطــاب إلــى غــرض الكتاب قولهم : كتبت"(٦٨). وقد جاء ذلك قليلا في هذه الرسائل؛ ومن ذلك قول ابــن الجد: "كتبتُ وقد هزني وافد البشرى، واستخفني رائد المسرة الكبرى، بما ســناه الله من قدومك محوط الجوانب والأرجاء، منوط الفخار بذوائب الجوزاء، محطوط الآثــار في مواطن الرسل ومواطئ الأنبياء، فيا لها حجة مبرورة ما أتم مناسكها، وأوضــح في مناهج البر مسالكها" (٦٩).

هــ– كما استغنى بعض الكتاب عن هذه الابتداءات ودخلــوا فــي الموضــوع مباشرة؛ ومن ذلك رسالة لابن أبي الخصال استهلها بقوله:"إلى بعثة الإيمان، ووفــد

---

(٦٥) الإحاطة : ٥٣٦/٤ ، أزهار الرياض : ٤٥/٤ ، ونفح الطيب: ٣٩٠/٦ .

(٦٦) أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب ص ٩٠، مكتبة النهضة المــصرية ، القــاهرة ، ط١٠ /١٩٩٤م.

(٦٧) السابق : ص ٩٠ .

(٦٨) إحكام صنعة الكلام :ص ٧٨ .

(٦٩) الذخيرة :٢٨٨/١/٢.

الرحمن، وركب القفول ، ورواد الرسول ، وملبي دعوة الخليل ، الفـارين مـن الله تعالى إليه ، ..." (٧٠).

وقول القاضي عياض في الصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم– : "صـلوا بكرة وأصيلا، على من فضله الله تفضيلا، واتخذه حبيبا وخليلا، ونزل عليه القـرآن تنزيلا، وكان له وليا ونصيرا ومعينا وكفيلا، وختم به رسـله، ونهـج علـى يديـه الكريمتين سبله، وزكى قوله وعمله، وبلغه أمله، وبالشفاعة فضَّله" (٧١).

وقول ابن الجنان : "لمحمد خير الأنام، ولبنة التمـام، عليـه أفـضل الـصلاة والسلام، خيرة المفاخر يتضاءل لعظمتها المفاخر، والمعالي يتصاغر لعزتها المعالي" (٧٢).

وقول أبي الحسن الجياني :" إلى سيد المرسلين، ورسول رب العالمين، الـذي جعلت له الأرض مسجداً وطهورا، وكان ولم يزل منتقلاً من صلب آدم نوراً، من يلجأ إليه يوم الفزع الأكبر النبيون، ويرجو مذخور شفاعته في غد المسيئون" (٧٣).

والسبب في خلو هذه الرسائل من الابتداءات– في تقديري– يعود إلى صـنيع النساخ والمؤرخين، إذ كانوا يلجئون لذلك اختصارا، وتخففا من النسخ.

ولعل الذي دفع الكتاب إلى الدخول في الموضوع مباشرة دون تقديم ، هو مـا تنطوي عليه نفس الكاتب من فوران الصدر ، وجيشان الفؤاد ، وصدق الأحاسيس ، وقوة الشعور، وغلبة الشوق، وشدة الحنين نحو الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومشاهدة البقاع المقدسة ، والشعور بجلالها وعظمتها ، هذا كله غلب على الكاتـب، فلم يدع أمامه مهلة ليقدّم بين يدي غرضه، فعبر عما في نفسه مباشرة دون تقـديم أو استهلال!.

---

(٧٠) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٩١.

(٧١) أزهار الرياض : ٨٦/٤.

(٧٢) نفح الطيب : ٤٢٢/٧ .

(٧٣) الذيل والتكملة : ٢٨٨/٥ .

إن هذا التنوع في الابتداءات يعكس تنوع أساليب الكتاب واختلاف أمزجتهم ، كما يشف عن تطور أسلوب الكتابة ، وهو – أيضا– دليل على اختلاف العقول والأذواق وتطورها.

ثانيا– الانتقال

إذا كان مستهل الرسالة وختامها من العناصر المهمة في بنائها – فإن مضمون الرسالة هو أهم ما فيها، وعلى الكاتب أن يربط بين مضمون رسالته في الابتداء كما يدل عليه – أيضا– في الختام ، فالبدء والختام لابد أن يرتبطا ارتباطا وثيقا بمضمون الرسالة، فيكون بينهما تواؤم وترابط واضح .

وقد اصطلح النقاد على تسمية الرابط بينهما بما يسمى: حسن الخروج، أو حسن الانتقال، أو حسن التخلص . يقول صاحب مواد البيان: "حكم المقدمة والتشبيب الواقعين في المنثور والمنظوم أن يكونا متصلين بما بعدهما وغير منفصلين عنه، فأما مقدمة المنثور: فأن يكون اتصالهما بما بعدهما من طريق المعنى، وهو اشتمالها بالقول المجمل على معاني ما جعلت مقدمة له ، واشتمال ما بعدها على تفصيل ما أجمل فيها"(٧٤).

وفي هذه الرسائل نلاحظ أن الكتاب كانوا يربطون بين فواتح الرسائل ومضمونها من ناحية اللفظ والمعنى ، وفي هذا ما يقوى الربط بين أجزاء الرسالة، ويؤدي إلى تماسكها ، وتحقق الوحدة العضوية بين أجزائها، وكانوا ينتقلون من الفاتحة إلى مضمون الرسالة بألفاظ مختلفة وطرق متنوعة، وأبرزها طريقتان :

الأولى: أن ينتقل الكاتب بلفظة مشتقة من الكتابة، وأكثر هذه الألفاظ وروداً: (كتبت ،كتبته ،كَتبه).

فمن نماذج الانتقال بلفظة (كتبت) قول ابن الجد : "كتبت يا أكرم الأنبياء وسائل: وأعظمهم فضائل: وأعمهم فواضل: وأتمهم فرائض ونوافل، وقلبي بحبك

---

(٧٤) مواد البيان : ص ٢٦٦ .

معمور ومأهول، وعلى الإيمان بك مفطور ومجبول، وبتمثل ما عاينته من عظيم آثارك مهول مشغول"(٧٥).

ومن نماذج الانتقال بلفظة (كتبته) قول أبي الحسن الجياني : "كتبته وأنا أتنفس الصعداء ، وأناجي بل اغبط أهل زيارتك السعداء ، وللزفرات تصعد وانحدار ، وللعبرات تردد في الجفن وانهمار" (٧٦).

ومن نماذج الانتقال بلفظة (كتبه) -بضمير الغائب- قول ابن الخطيب: "من عتيق شفاعته وعبد طاعته المعتصم بسببه المؤمن بالله ثم به المستشفى بذكره ... المتوسل به إلى رضى الله ربه يوسف بن إسماعيل بن نصر ، كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح، وخيل الوجد ذات جماح، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر، وانكسار لا يتاح له إلا بدنو مزارك الجبر"(٧٧).

- الثانية: أن ينتقل الكاتب بصيغة : (وبعد) ، وهي قليلة في هذه الرسائل، ومن نماذجها قول القاضي عياض : "وبعد: فإني كتبت إليك، - صلى الله عليك- يا خاتم الرسل، وهادي أوضح السبل، ورحمة العالمين، ونعمة الله على المؤمنين، وشارح القلوب والصدور، ومخرجها من الظلمات إلى النور، فإني عبد من أهل ملتك، المتحملين لأمانتك، منهاجك وشرعتك" (٧٨).

والملاحظ أن الكتاب أحسنوا في طرق الانتقال من الابتداء إلى مضمون الرسالة، إذ نجد ترابطا واضحا، وتواؤما بيَّنا بين البدء والانتقال والمضمون ، فجاءت الرسالة وحدة متماسكة، وهذا راجع- في تقديري- لبراعة الكاتب من ناحية ، وطبيعة الموضوع من ناحية أخرى.

---

(٧٥) الذخيرة : ٢٨٦/١/٢ . وانظر رسالة ابن أبي الخصال : رسائله ص ٣٩٢ .
(٧٦) الذيل والتكملة : ٥/ ٢٩٠ . وانظر رسالة الجياني : نفح الطيب: ٤٢٥/٧ .
(٧٧) أزهار الرياض : ٤١/٤. وانظر رسالته الثانية : السابق : ٤/ ٥٠ .
(٧٨) السابق : ١٧/٤.

ثالثا- الختام

بعد ما ينتهي الكاتب من رسالته يصل إلى الخاتمة ، فهي آخر ما يبقى في نفْسه، والخاتمة "وسيلة فنّية يجلبها الكاتب للتخلص من موضوعه تخلصا رَيِّضا يذر المخاطب متعاطفا مع ما بثّه في صلب رسالته من قضايا وأراء"(٧٩).

ويجب على الكاتب أن يجعل ختامه حسنا بليغا، كأن يختم بتشبيه مليح ، أو مثل حسن ، أو نحو ذلك ، فقد كان يفعل ذلك الشعراء ، وهكذا يفعل الكتّاب الحذاق والمترسّلون المبرِّزون(٨٠).

ومن حذق الكاتب وبراعته في ختام رسالته أن يكون مؤذنا بانتهاء الكلام ، لأن نهاية الرسالة وخاتمتها هي "آخر ما يبقى في الأسماع ، ولأنّها ربما حُفِظَت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال ، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها"(٨١).وقد أشار ابن عبد الغفور إلى ذلك في قوله: "وكذلك يجب أن يُستجاد آخر الرسالة ويُتْقن؛ حتى يكون قُفْلاً لمحاسنها ، كما أنّ أولها مفتاح لذلك"(٨٢).

والناظر في ختام رسائل الأندلسيين النبوية يجد أنها ختمت بخواتيم متنوعة ، ومن هذه الخواتيم:

---

(٧٩) الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : د. محمد محمود الدروبي ص ٥٠١ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، الأردن ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٨٠) انظر : كتاب الصناعتين :ص ٤٤٤ .

(٨١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق:د. حفني محمد شرف ٦١٦/٤ ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

(٨٢) إحكام صنعة الكلام :ص ٢٤٣ .

– الختام بالحمدلة؛ ومن ذلك قول القاضي عياض في ختام رسالته في الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم : " وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"(٨٣).

– الختام بالصلاة والسلام على النبي– صلى الله عليه وسلم–؛ فقد حرص الكتاب على ختام رسائلهم (بالتصلية) ، وقد جاءت الصلاة على الرسول الكريم في الختام على عدة صور :

الأولى : الختام بالسلام فقط دون الصلاة عليه – صلى الله عليه وسلم – ومن ذلك قول ابن الجد :"والسلام المردد المؤكد على نبي الرضوان، وصفي الرحمن، ما تعاقب الملوان، وتناوب العصران"(٨٤).

الثانية : الختام بالسلام مشفوعا بالصلاة على النبي –صلى الله عليه وسلم– وحده، دون آله وصحبه، وقد استحسن القلقشندي أن يجمع الكاتب بين الصلاة والسلام على النبي– صلى الله عليه وسلم –، يقول : "فإذا صلى على النبي – صلى الله عليه وسلم– فليجمع بين الصلاة والتسليم ولا يقتصر على أحدهما"(٨٥).

ومن ذلك قول ابن الخطيب: "وصلاة الله وسلامه تحط بفنائك رحال طيبها، وتهدر في ناديك شقاشق خطيبها، ما أذكر الصباح الطلق هداك، والغمام السكب نداك، وما حن مشتاق إلى لثم ضريحك، وبليت نسمات الأسحار عما استرقت من ريحك"(٨٦).

---

(٨٣) أزهار الرياض : ٩٥/٤ .

(٨٤) الذخيرة : ٢٨٨/١/٢ .

(٨٥) صبح الأعشى في صناعة الإنشا : أبو العباس القلقشندي ٢٧٧/٦، س: الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٤م

(٨٦) أزهار الرياض: ٧٨/٤ .

الثالثة : الختام بالسلام مشفوعا بالصلاة على النبي- صلى الله عليه وسلم- وآله، وصحبه، وذريته، وغيرهم. يقول القلقشندي : "ويجوز الصلاة على الآل والصحب بعد الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم" (٨٧) .

وهذه الصورة هي أكثر الصور ورودا ؛ ومن ذلك قول ابن أبي الخصال : "وصل اللهم عليه، وعلى أصحابه أعلام الإسلام، ومصابيح الظلام، وعلى أهل قُرباه، ومن نصره وآواه، وعلى أزواجه الصالحات العابدات السائحات صلاةً تُباري تفاوح ثنائهم، وتُغادي وتُراوح فِناءهم، يتضوع شذاها بقبورهم، ويسطع نَشْرها إلى يوم نشورهم، مشفوعا عبقها بالدوام والتمام إلى دار السلام، ثم سلام الله عدد خلقه، ورِضى نفسه، على نبي رحمته، المغفورِ له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، ورحمة الله وبركاته، وأنهاره وجناته، وروحه وريحانه، ومغفرته ورضوانه، وسلم تسليما كثيرا"(٨٨).

وقول أبي الحسن الجياني : "وعلى سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله، وصحبه، وذريته أفضل الصلاة والتسليم، ما نقع العذب الزلال نفوس الهيم، وصدع البرق رداء الليل البهيم، بحوله وفضله(٨٩).

– الختام بالسلام مشفوعا (بالمشيئة)، وهي قوله : "إن شاء الله تعالى". وقد ذهب القلْقَشندي إلى استحباب هذا الختام ، فقال : "اعلم أنّه يُستحب للكاتب عند انتهاء ما يكتبه من مكاتبةٍ أو ولايةٍ أو غيرهما أن يكتب إن شاء الله – تعالى- تبركًا ورغبةً في نجاح مقصد الكتاب"(٩٠).

---

(٨٧) صبح الأعشى : ٢٢٨/٦ .

(٨٨) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٦٩.

(٨٩) الذيل والتكملة : ٢٩٣/٥ . وانظر – أيضا- رسالة ابن الخطيب: أزهار الرياض : ٤٥/٤ .

(٩٠) صبح الأعشى : ٢٣٢/٦ .

ومن ذلك قول ابن الجنان : "وأقرئك سلاما تنال بركته من مضى من أمتك وغبر، ويخص بفضل الله – تعالى– وجاهك من كتب وسطر، إن شاء الله تعالى"(٩١).

– وقد يختم الكاتب (بالتحية)، وهي قوله : "والسلام عليك ورحمة الله". ومن ذلك قول ابن أبي الخصال: "وسلم الله الرائح الغادي، المتوالي على صفوتي وأعضادي، ومظنة تعويلي واعتمادي، ورحمة الله" (٩٢).

– وقد يختم الكاتب (بالدعاء)؛ والدعاء من الخواتيم الحسنة، فهو مما تقبل عليه النفوس، وترق له القلوب، وعليه أن "يتحرى في الدعاء الألفاظ الرائقة، والمعاني اللائقة، ويتوخى من ذلك ما يناسب الحال ، ويشاكل المعنى، ويوافق المخاطب" (٩٣).

وهذا وارد في هذه الرسائل؛ ومن ذلك قول ابن الجد : "فهنأك الله ما منحك من جزيل الأجر في مواقف الحرمين، وأطار لك من جميل الذكر في الخافقين ، ولما قعد بي عن قصدك ما قعد، ولم يمكني الوفود عليك في جملة من وفد، استنبت كتابي منابي"(٩٤).

هذا التنوع في الختام يعكس مدى اهتمام الكتاب وحرصهم على انتقاء خواتيمهم؛ حتى تأتي مناسبة لما يكتبون، وملائمة لحالة المتلقي، وتقع منه موقع القبول والتأثير، وبذلك تحقق الإقناع والإمتاع معا . ولا عجب في ذلك : "فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه، والغاية في كماله"(٩٥).

---

(٩١) نفح الطيب : ٤٢٦/٧ .

(٩٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٩٣ .

(٩٣) إحكام صنعة الكلام ص ٨٢.

(٩٤) الذخيرة : ٢٨٩/١/٢.

(٩٥) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة العلوي ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ١٠٤/٣ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.

إن التنوع في البدء والختام من سمات هذه الرسائل؛ إذ لم يلتزم الكتاب ببداية معينة أو خاتمة بعينها، وإنما نوعوا في البدء والختام بما يعكس اختلاف الرؤى وتعدد الأذواق، وهذا التنوع لم يكن الغرض منه مجرد التلوين في الكتابة، وإنما هدف الكتاب من ورائه إلى توظيف عناصر البدء والختام توظيفا فنيا يخدم المعنى، ويرسخ الفكرة، ويساعد على إبرازها، بما يقع موقع القبول والتأثير عند المتلقي ، وبذلك يتحقق القبول والإمتاع.

الفصل الثالث: الصياغة الفنية

مدخل: اللغة والأسلوب

اللغة هي الأرض الخصبة التي تنمو فيها بذرة العمل الإبداعي، وهي الوعاء الذي يصب فيها الأديب – شاعرا أم كاتبا– أفكاره ومشاعره، وهي الأساس الأول للتعبير، وهي وسيلة الإبانة عما في النفوس، لذا قال عنها ابن جني: إنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (٩٦).

واللغة هي وعاء الأفكار، ووسيلة نقل التجارب، وأداة التواصل بين الكاتب والمتلقي، فإذا أراد المبدع أن يعبر عن فكرة ما ، أو ينقل شعوره وما يعانيه فهو يعبر عن ذلك بالكلمة ، فيصوغ تجربته من خلالها.

هذه العملية التي تصاغ فيها الألفاظ تعرف بطريقة التعبير أو بالأسلوب، وهو من أهم ما يميز الكاتب عن غيره من الكتاب ، وهو الذي يظهر مقدرة الكاتب الفنية، وبراعته في عرض فكرته ، وإبراز معانيه وتجليتها في معرض يجذب المتلقي ويشد انتباهه.

---

(٩٦) الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : د.محمد علي النجار ١/ ٣٣ ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٧١هـ– ١٩٥٢م.

فالأسلوب هو طريقةَ التّعبيرِ وانتقاء الألفاظ وصياغتها ونظمها في نسقٍ لغويٍّ فنيّ: وهو "طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير" (٩٧).

وفي هذه الصفحات نحاول أن نقف مع الكتاب في هذه الرسائل لنرى طريقتهم في صوغ عباراتهم وتراكيبهم ، ومدى تعبير الكلمات عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، ومدى استيعاب اللغة لتجربتهم وما يختلج في نفوسهم.

أولا- الألفـــــاظ والتراكيب.

الألفاظ عنصر أساس في بناء العمل الأدبي ، فهي اللبنات التي تتركب منها العبارات، ويتألف منها الكلام ، وهي التي تترجم الأفكار والمعاني وتجسدها ، وتبرزها حتى تصل إلى المتلقي فيتأثر بها .

وعلى المبدع أن يختار اللفظة المناسبة لحالته الشعورية ، الموائمة للمعنى الذي يود التعبير عنه والفكرة التي يروم إبرازها ، إذ يتمُّ اختيار الألفاظ بحسب المقام والحاجة حتى يتهيأ لعمله الأدبي النجاح والقبول ، ويحدث في نفس المتلقي التأثير والانفعال المطلوب.

يقول العاملي: "إنّ البليغَ مَنْ يُحرّكُ الكلام على حسب الأماني، ويخيطُ الألفاظَ على قدر المعاني، والكلامُ البليغُ كُلُّ ما كانَ لفظُهُ فحلاً ، ومعناهُ بكراً" (٩٨).

إن اختيار الكلمة له أهميته في النص الأدبي "والذي يجب على البليغ في استعمال الألفاظ أن تكون سهلة لها حلاوة وطلاوة وعليها رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة ، فلا يكون متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً عميّاً" (٩٩).

---

(٩٧) الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية) : أحمد الشايب ، ص ٤٤ ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، السابعة ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

(٩٨) الكشكول لخاتمة الأدباء وكعبة الظرفاء: بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري: ٢٨٢/١، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

ويتجلى الحسن في اللفظ ، وتظهر مزيته في استعماله فيما يتناسب معه من أغراض: "فالألفاظ تنقسم في الاستعمال إلي جزلة ورقيقة ، ولكل منها يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق ، وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف ، وأشباه ذلك" (١٠٠).

وحين نتأمل هذه الرسائل نجد حرص الكتاب على اختيار الألفاظ القادرة على التعبير عن تجاربهم بطريقة ملائمة، تناسب التركيب لتكون الجملة سليمة ، يصاحبها جمال البيان ، وعذوبة الألفاظ، وحسن تآلفها وتوائمها مع المعنى والفكرة.

وإذا وقفنا على المعجم النثري في هذه الرسائل وجدناه يغلب عليه ألفاظ وتراكيب متنوعة مختلفة تتناسب والحالة الشعورية التي يعيشها الكتاب .

فنجد الألفاظ التي تدل على الإجلال والتقدير للرسول الكريم والبقاع المقدسة من مثل :سيد المرسلين ، إمام المتقين ، ذو الخلق العظيم، الطاهر المطهر المختار ، نبي الرحمة، هادي الأمة ، الصادق الأمين، الحق المبين ، أكرم الأنبياء، ...، المشاهد الكريمة ، الأرض الأريضة ، بيتك المحرم، البيت الأكرم ، المعالم المكرمة ، الشعائر المعظمة، منازل التنزيل ، معاهد الرسول ، القبر الكريم ، مدارس الآيات، مهبط الوحي والمناجات ، مطالع المعجزات.... الخ.

هذه الألفاظ توحي بتعظيم الكتاب للرسول- صلى الله عليه وسلم- وتوقيرهم له، وإجلالهم لشخصيته الكريمة ، كما تشي بتعلقهم به وحنينهم إليه وتشوقهم للديار المقدسة ، والتعلق بها، وتمني زيارتها ومشاهدتها.

كما تتجلى ألفاظ أسماء ومعالم البقاع المقدسة في مكة والمدينة وما يتصل بها من مناسك الحج والعمرة من مثل: مكة، المدينة ، الحج ، العمرة، البيت ، المنبر ، طيبة ، الحطيم ، زمزم ، القبر، المقام ، قبرك ، مزارك، الضريح ، الروضة ،

---

(٩٩) أوراق من كتاب نقد النثر أو المنزلة الثالثة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة : قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، تحقيق: د. حسن عباس ص ١١ ، دار الحضارة بطنطا، بدون.

(١٠٠) المثل السائر : ١٨٥/١ .

الخيف، منى، المزدلفة ، أيام التشريق ، استلام الحجر، عرفات، البيت العتيق، التقصير، التحليق ، طواف الإفاضة ، الصفا والمروة .

هذه الألفاظ توحي بإجلال الكتاب لهذه البقاع الطاهرة وتوقيرهم لها ، كما تؤكد تعلقهم بها وحنينهم إليها ، وشوقهم إلى زيارتها والعيش في رحابها ، وتكحيل العين برؤيتها. "وكلها معالم ناطقة بالهدى، موشّاة بالضياء واليقين ، وتحمل ذروة الشعور في الوجدان المسلم، وتسيطر على دوائر التوهج في مدارات الإبداع"(١٠١).

كما تظهر بوضوح ألفاظ الشوق والحنين التي تكشف عن تعلق الكتاب الواضح بالرسول – صلى الله عليه وسلم– وحنينهم إليه ، وشوقهم الآسر للبقاع المقدسة من مثل: الشوق ، الحنين ، اللهفة ، زفرة، عبرة، الشوق المثار، حبك قد تخلل وسرى في الأعظم ، شوق يزداد كلما نقص الصبر ، قلبي بحبك معمور، الحنين إلى شرف جوارك ، أتهالك في حبك ، أعفر خدي في مقدس تربك، الشائق إلى زيارته، لا يطفئ غلتي إلا شربك، لا يسكن لوعتي إلا قربك.... الخ.

وهي ألفاظ وتراكيب تشف عن حنين الكتاب الجارف وشوقهم إلى الرسول الكريم والمعاهد المباركة في مكة والمدينة ، وتؤكد تعلقهم الواضح بها، كما تكشف عن حبهم الصادق للرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم.

كما تبدو ألفاظ التوسل والاستغاثة واضحة في مثل: الشفاعة ، التوسل، أتوسل بك ، الوسيلة، عفو الله، استشفاعك ، انقطعت آماله ، التعلق ، وسيلتك ، تقبل، اقبلني، عماد أمتك ، شفيعهم ، عياذي، لياذي، شفيع المذنبين، شفيع الأمة، عفو الله واستشفاعك، لا خلاص إلا بالتعلق بحقوك، اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظيم.

---

(١٠١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق: ص ٨٧ .

هذه الألفاظ تدل على تعلق الكتاب بالرسول –صلى الله عليه وسلم– وتمسكهم به، وطلب شفاعته، فهم يرونه وسيلتهم لرضا ربهم ، ومغفرة ذنوبهم، والعفو عن زلاتهم .

كما نجد ألفاظ الغبطة للذين كتب الله لهم زيارة هذه البقاع من مثل: سعدوا بالمقدور ، بلغوا حاجة في الصدور ، أغبط أهل زيارتك السعداء، روّاد الرسول ، وفد الرحمن ، الفارين إلى الله ، ركب الهدى ، قضوا مناهم ، زاروا تربة الشفيع.

هذه الألفاظ والتراكيب تكشف عن تعلق الكتاب بركب الحجيج الذين كتب الله لهم الزيارة، ومشاهدة الرحاب الطاهرة في الديار الحجازية.

كما تتجلى الألفاظ التي تدل على الخشية والخوف والرجاء والمناجاة: من مثل: طليح ذنوب ، أسير تبعات ، العاصين ، خطاياه ، آثامه ، المتاب، مدنس ، أثقلت ظهره مع العاصين خطاياه وآثامه ، قصرت به عن جد المخلصين أوزاره وأجرامه، أعنه على أداء الفريضة، شرفني بقضاء الفريضة ، اغسلها من ذنوبها وخطاياها، اشف بمرآها بصرا ضريرا ، اكحله بسناها .

وهي توحي باعتراف الكتاب بزلاتهم وهفواتهم ، والخوف من عذاب ربهم وعقابه، ورجاء عفوه ورحمته عسى أن يغفر لهم ، ويصفح عنهم، كما تكشف عن مناجاتهم لربهم ودعائه أن ييسر لهم أداء الفريضة ، وأن يكحل عيونهم بمرأى البقاع المقدسة.

كما تظهر ألفاظ التحسر والأسف والحزن على عدم الاستطاعة ومشاهدة هذه الديار؛ ومنها : فوا أسفا ، رحل المجدون وأقمت، استقام المستعدون وما استقمت، الآثام تنئي وتبعد، قل الوفر، استقل السفر، خلفته عيوبه ، أوبقته ذنوبه، للزفرات تصعد وانحدار ، للعبرات تردد في الجفن وانهمار ، في فؤادي لوعة ، حسرة على تفريط يتقد الحشا، أسف يلتهب ، أتشبث بهم ، أتبعهم نفسا لا يئوب ، ندما على أمل ، زفرة بأحناء الضلوع.

هذه الألفاظ والعبارات تشف عن الحزن العميق ، والحسرة والألم اللذين خيما على الكتاب لعدم استطاعتهم أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة، والوقوف أمامها، وذرف الدمعات، والاعتراف بالزلات عند بيت الله المحرم ، ومقام نبيه المكرم.

مم سبق يتضح أن الكتاب استعملوا اللفظة الموحية التي تشف عما في نفوسهم، وتكشف عن شعورهم، وما تجيش به صدورهم ، وتعمق تجربتهم، وتدل على المعنى الذي يرومونه، والفكرة التي يريدون الكشف عنها من أيسر طريق ، وتجذب المتلقي وتضفى – مع أخواتها– على المعنى والأسلوب الحلاوة والطلاوة.

ثانيا– المعاني

هذه الرسائل تدور حول عدة معان تشملها جميعا، إذ نجد الكتاب يدورون حولها، وتتغير ألفاظهم، وتتنوع تجاربهم ولا يبتعدون عنها كثيرا ، والمعاني التي تشملها هذه الرسائل تتلخص فيما يلي:

– شوق الكتاب وحنينهم إلى زيارة الرسول –صلى الله عليه وسلم ، وأداء فريضة الحج، ومشاهدة البقاع المقدسة في مكة والمدينة .

– تصوير الكتاب لعظمة هذه البقاع وتقديرهم إياها، وإجلالهم لها ، وأثر ذلك في نفوسهم .

– تعظيم الكتاب للرسول – صلى الله عليه وسلم– وثناؤهم عليه وتقديرهم إياه ، وإجلالهم لرسالته التي أخرجت العالم من الظلمات إلى النور ، والحديث عن معجزاته، وفضله على غيره من الأنبياء.

– المناجاة والتضرع والتوسل؛ إذ نجد الكتاب يتضرعون إلى ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن ييسر لهم أداء فريضة الحج ، وزيارة هذه المعاهد الشريفة ، ويتوسلون بالرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– ليكون شفيعهم عند ربهم ، يوم لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه .

- اعتذار الكتاب للرسول – صلى الله عليه وسلم- عن عدم استطاعتهم زيارته وأداء فريضة الحج ، والوصول للأراضي الحجازية .

- الشكوى مما يعانيه المسلمون من تكالب الأعداء عليهم (١٠٢).

هذه المعاني ليست تحديدا لما تشتمل عليها كل رسالة ، وإنما عبارة عن تسجيل لمحاور أساسية ، ومعاني شاملة تدور حولها هذه الرسائل ، لا ندعي أنها معاني تفصيلية تتسع لتفصيل الموقف أو شرح التجربة ، مع اختلاف الكتاب في الإحاطة بها، والوقوف عليها، وتنوع زوايا الرؤية فيها .

سمات المعنى

الذي يعنينا الآن هو الوقوف على هذه المعاني التي دار حولها الكتاب، ومعرفة سماتها وخصائصها، ومما تتميز به . وقد اتسم المعنى في هذه الرسائل بسمات عامة تميز بها ، بدت واضحة . من هذه السمات:

١- شرف المعنى وسموه

المعاني لا تكون رفيعة وضيعة لذاتها، بل بما تحمله من أهداف، أو تدعو إليه من فكرة ، أو تؤديه من مفهوم ، فالمعاني التي تحمل فكرة دنيئة مبتذلة، أو تدعو إلى عمل رخيص وضيع ، أو تتقوقع في شرنقة الأثرة والأنانية- هذه المعاني لا يمكن أن تكون صحيحة سليمة، لأنها تصطدم بالفكرة الإنسانية السليمة التي لا مناص من أن الأديب يدعو إليها في النهاية في النزوع بمتلقيه نحو الكمال الإنساني(١٠٣).

---

(١٠٢) وذلك واضح بين في رسالتي ابن الخطيب . انظر : أزهار الرياض: ٤/ ٤٢، ٤٣ ، ٥١ وما بعدها.

(١٠٣) انظر: الرحلة إلى الحجاز في الأدب المصري الحديث: ص ٣٢٩ .

والذي دعاني إلى التعرض لهذه السمة أني وجدت المعنى في هذه الرسائل في الذروة من الشرف والسمو ، والرفعة ، والتهـذيب النفـسي والروحـي، والعـروج بالمتلقي نحو الفضيلة وتهذيب الشعور .

فالمتأمل في هذه الرسائل يجد أنها رسائل شريفة في موضوعها، سامية فـي أفكارها، مهذبة في معانيها، ذلك أن أصحابها سجلوا فيها أسمى ما تسمو إليه النفس البشرية، ويتضح ذلك في عدة أمور :

أ- الرغبة الملحة في أداء الحج والعمرة ، والتمتع بمشاهدة الرحاب المباركـة في مكة والمدينة.

ب- تمني زيارة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- ، والوقوف أمام قبره الشريف ، والتوسل به طلبا لشفاعته .

ج- تهذيب النفس البشرية والسمو بها إلى ما يرضاه الله ورسوله ، وغـسلها بماء التوبة من الذنوب والخطايا.

د- تصوير المشاعر، ونقل الخواطر ، والتعبير عن الشوق الكامن في النفوس للرسول الكريم والبقاع الكريمة .

هـ- التطلع إلى رضا الله -سبحانه وتعالى- بأداء فريضة الحج ، ومناجاتـه -سبحانه- في هذه الرحاب الطاهرة ، وسكب العبرات على التفريط في جنـب الله ، والاعتذار عما وقع من هفوات وزلات ، ورجاء عفو الله - تعالى - ومغفرته.

ومن نماذج ذلك قول ابن الجنان : "كتبته يا رسول الله وقـد رحـل المجـدون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت، وبيني وبين لثم ثراك النبوي، ولمح سناك المحمدي، مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه بماء توبة، وسـتر وصـم عيبه بظهر غيبه، فكلما رمت المتاب رددت، وكلما يممت الباب صددت، وقـد أمرنـا الله -تعالى- بالمجيء إليك، والوفادة عليك، ومن لي بذلك - يا رسول الله- والآثام تنئي وتبعد، والأيام لا تدني ولا تسعد، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المقيم المقعد، ولئن كنت ممن خلفته عيوبه، وأوبقته ذنوبه، ولم يرض للوفادة وهو مدنس،

على ذلك المقام وهو المطهر المقدس، فعندي من صدق محبتك، وحب صحبتك، والاعتلاق بذمتك، ما يقدمني وإن كنت مبطئا، ويقربني وإن كنت مخطئا" (١٠٤).

فنرى الكاتب يعتذر للرسول – صلى الله عليه وسلم– عن عدم زيارته ، ويأسف لعدم استطاعته بسبب طول المسافات، وذنوبه التي حالت بينه وبين تحقيق ما يتمناه، وقد رحل وفد الحجيج ولم يرحل ، وجدوا في سفرهم ولم يتأهب، وحبه يسري بين جوانحه، والأشواق تكاد تحرق قلبه، وله أمل في الوقوف بهذه الرحاب الطاهرة: مهبط الوحي ، وأرض الرسالة ، ومتنزل القرآن.

فأي معنى شريف أراد الكاتب أن يسجله في هذه الكلمات؟! إنه الحنين الجارف، والشوق الملتهب ، والتعبير عن الحب الصادق للرسول – صلى الله عليه وسلم– وتمني زيارته، والوقوف أمام قبره الشريف، ولثم ترابه الطاهر.

٢– استقامة المعنى ووضوحه

يكون المعنى واضحا حين يصل إلى الأفهام من أقرب سبيل، وأسهل طريق دون كد أو تعب، ومن غير التواء ولا غموض ، فلا يجبر المتلقي على البحث والتفتيش والعناء حتى يصل إلى المعنى الذي أراده الكاتب.

والمعاني في هذه الرسائل جاءت واضحة مستقيمة، لا تحتاج إلى عناء في فهما، والوقوف على ما يرمي إليه الكاتب من ورائها ، فكما جاءت الألفاظ رقيقة سهلة، جاءت المعاني واضحة مستقيمة ، وفي هذا ما يؤكد ارتباط اللفظ بالمعنى في هذه الرسائل ، وإذا ما التحم اللفظ بالمعنى كان الترابط والتماسك هو سمات ذلك العمل الفني. يقول ابن رشيق : "اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته"(١٠٥).

---

(١٠٤) نفح الطيب : ٤٢٥/٧ .

(١٠٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي الحسن علي بن رشيق ، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ١٢٤/١، دار الجيل ، القاهرة ، الخامسة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

ومن نماذج وضوح المعنى قول ابن أبي الخصال : "فأتوسل بك يا رسول الله إلى مصطفيك بالرسالة والوسيلة، ومُختصك بالدرجة الرفيعة والفضيلة، ومُؤتمنك على إقامة حقه، ومُبْتَعِثك بالنور والهدى إلى جميع خلقه، ليُسعدني بجوارك، ويُكرمني بحلول دار هجرتك وأنصارك"(١٠٦).

فالمعنى هنا واضح مستقيم لا غموض فيه ولا التواء، وهو التوسل به – صلى الله عليه وسلم – أن يسعد الكاتب بزيارته، والوقوف بحرمه في دار هجرته، ومبعث رسالته.

ومن ذلك قول أبي الحسن الجياني : "ليت شعري ما يسكن هذا الشوق المثار؟ وهل أعفر وجناتي في تلك المشاهد الكريمة والآثار؟، قسماً يا ذا الخلق العظيم بمقامك الأعظم، إن حبك قد تخلل وسرى في الأعظم، فهو روح النفس وغذاؤها، ويوح الأنس يسطع ضياؤها، بلبانه الطيب فطنت، وبرمامه المستصحب فطمت" (١٠٧).

فالكاتب هنا يعبر عن شوقه وحنينه للرسول – صلى الله عليه وسلم– ، وهو يقسم بالله – تعالى– بحبه له الذي ملك عليه قلبه ، وسرى فيه كسريان دمه ، فهو غذاء روحه ، ونور قلبه .

هذه الكلمات تنقل للمتلقي المعنى الذي أراد الكاتب التعبير عنه على نحو من الوضوح وصفاء الرؤيا ، وهو بث أشواقه المتأججة لزيارة النبي – صلى الله عليه وسلم– والبقاع المقدسة، وإثبات حبه له – صلى الله عليه وسلم ، فحبه هو الغذاء الروحي لنفسه ، وهو الدواء لعلته.

---

(١٠٦) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٦٨ .

(١٠٧) الذيل والتكملة : ٥/ ٢٩١ . يوح : اسم للشمس.

٣- تآلف المعاني وترابطها

على الرغم من تنوع مضامين ومعاني هذه الرسائل فإنها تندرج تحت معيار أو إطار واحد، يعمل على توفير التناغم والانسجام بين المعاني ، وأقصد بـه: الأجـواء الدينية والروحية؛ هذه الأجواء تشكل محور ارتكاز أصيل وجوهري لهـذه الرسـائل التي يتنوع على أساسها عدة معان، لا تفتأ تطالعها منذ لحظـة البـدء ، ومـرورا بالعرض ، وانتهاء بالخواتيم ، فأينما قلبت الطرف فيهـا وجـدت أحاديـث الوجـد والهيام، والتحرق والمعاناة إلى الرمز الإسلامي الأول: (الرسول الكريم – صـلى الله عليه وسلم–)، وإلى تلك البقاع المقدسة في مكة والمدينة، وأثر ذلـك فـي نفـوس الكتاب.

ونظرة فاحصة في هذه الرسائل تجد تآلف المعاني، وترابطها، وتسلسلها فـي جو نفسي متماسك يفضي بنا في النهابة إلى حب الكتاب الصادق للرسول – صـلى الله عليه وسلم– وحنينهم الواضح إلى الوقوف أمام قبره الشريف، ومشاهدة البقـاع المقدسة ، وري ظمأ الفؤاد بمناجاة الله – تعالى– والتضرع إليه ، والتوسل برسوله في هذه الرحاب الطاهرة.

يقف في طليعة هذه النماذج رسالة القاضي عياض التي يقول فيها: "فإني عبـد من أهل ملتك، المتحملين لأمانتك، منهاجك وشرعتك، والملتزمين للحنيفية ملة أبيـك إبراهيم، المؤملين النجاة بالدعوة، دعوتك التي خبأ شفاعة لأمتك، ممن أشرق فؤاده بشعاع أنوارك، واهتدى قلبه بعلم منارك، وتاه عقله بحسرة فوات رؤيتك وإبصارك، وهام قلبه في حبك وتوقير عظيم مقدارك، وعدتْهُ العوادي عن التشفي بقصد قبـرك ومزارك، وقطعت به القواطع عن التشرف بمشاهدة مـشاهدك الـشريفة وآثـارك، مصافح بالإيمان بك وتصديقك، شاهد الجـوارح بالتقـصير عـن أداء حقـوق الله وحقوقك؛ فهو طليح ذنوب ومآثم، وأسير تباعات وخل آثم، أثقلت ظهره مع العاصين خطاياه وآثامه، وانقطعت في التمني مع العادين لياليه وأيامه، وقصرت به عن جـد

المخلصين أوزاره وأجرامه، فلا رجاء له إلا في عفو الله واستشفاعك، ولا خلاص له إلا بالتعلق بحقوك، يوم يكون آدم ومن ولد تحت لوائك ومن أتباعك"(١٠٨).

فنرى الكاتب هنا يعترف للرسول- صلى الله عليه وسلم- بإيمانه به، واتباعه له، والعمل بسنته ، فهو من ممن أشرق فؤاده بحبه، واهتدى قلبه بشعاع أنواره، وهو من المشتاقين لرؤيته وزيارته، الراجين شفاعته، ومشاهدة المعاهد الشريفة، والوقوف بالرحاب الطاهرة، ولثم ترابها المقدس، المؤملين لمغفرة ذنوبهم ، وعفو ربهم ، وشفاعة نبيهم، فلا رجاء له إلا في عفو الله وشفاعة نبيه ، ولا خلاص له إلا بالتعلق به ، وأن يكون تحت لوائه ، ومن أتباعه.

إن المعاني التي عبر عنها الكاتب هنا هي : حبه للرسول- صلى الله عليه وسلم، والشوق إليه، وطلب شفاعته، والاعتراف بالتقصير عن زيارته، والاعتراف الكامل بالذنوب والآثام ، ورجاء عفو الله – تعالى- ومغفرته .

وأرى هذه المعاني سامية متآلفة مترابطة فيما بينها، يلفها جميعا ويربط بينها روح دينية واضحة ، وجو إيماني عميق ، سيطر على نفس الكاتب وروحه وعقله ، جعله يعبر عنه في هذه الكلمات التي فاضت بها قريحته، وبثتها جوانحه، فنقلت ما يجول في خواطره ونفسه.

إن المعنى في هذه الرسائل جاء متوائما مع الجو النفسي الذي يحياه الكتاب – وهم يسجلون رسائلهم للمصطفى الكريم -صلى الله عليه وسلم- بين هذه الرحاب المباركة في مكة والمدينة عند بيت الله الحرام، ومقام سيد الأنام .

هذا الجو النفسي يتسم بشفافية الروح ، ورقة الشعور ، ورهافة الحس، وصدق الإحساس، وطهارة الوجدان ، وصفاء القلب، وقد جاءت المعاني في هذه الرسائل متوائمة مع ذلك الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب ، ملتحمة به ، مفضية في

---

(١٠٨) أزهار الرياض: ٤/ ١٧ .

النهاية إلى تماسك الشكل مع المضمون، معبرة عن إحساس الكاتب النفسي، والسمو بالتجربة إلى أعلى درجاتها الفنية.

وكان من مظاهر هذا الاتساق والتواؤم: وضوح المعاني ورقتها، وسهولة العبارات وعذوبتها، فهو الطابع العام والمهيمن على هذه الرسائل، فالكتاب – وهم يسطرون رسائلهم– في رحاب بيت الله الحرام، وشرف الرسول – صلى الله عليه وسلم– ، تحفهم نسمات المشاهد الكريمة في مكة والمدينة ، لذا فالمعاني تنساب على ألسنتهم واضحة جلية، ولا مجال إذن للتعقيد والغموض والالتواء.

ثالثا : أساليب التعبير

لجأ الكتاب إلى أساليب اللغة المختلفة في الكشف عن المعاني التي يرومون تجسيدها، وإثبات الفكرة، ووضعها في حيزها الملائم من الأسلوب، والتعبير عما يختلج في نفوسهم من انفعالات وتصورات ، وما يجيش في صدورهم من مشاعر وأحاسيس. ومن هذه الأساليب:

أسلوب الاستفهام

هو وسيلة من وسائل التعبير، يتخذها الكاتب سبيلاً لتثبيت الفكرة في نفس القارئ ، وتلويناً لطرق الأداء في التعبير عنها ، وإغراء المتلقي، ولفت انتباهه.

ومن نماذج الاستفهام قول ابن أبي الخصال : "وكيف لا أقضي حزنا؟، ولا أرسل دموع الوجد والتلهف مُزنا؟، أم كيف ألذ الحياة؟، وأؤمل نجاة، ولم أعبر إلى زيارتك لجة ولا مَوماة، ولا أخطرت في قصدك نفسا أنت منقذها ومنجيها، ولا مَثُلْت بمعاهدك المُشَهرة، ومشاهدك المُطهرة أحييها، ولا نزلت عن الكُور كرامة للبقعة المقدسة التي ثوبت فيها؟" (١٠٩).

(١٠٩) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٥.

يسأل الكاتب نفسه كيف لها ألا تموت كمدا وحزنا، وتذرف الدمعات الغزار وجدا وتلهفا، وكيف لها أن تشعر بلذة الحياة ومتعتها وهي لم تر تلك المعاهد الشريفة والبقاع المقدسة ، ولم تتمتع بمرأى مقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ؟!.

هذا الاستفهام يكشف عن شوق الكاتب العارم إلى زيارة البقاع المقدسة، وحنينه الجارف إلى مثوى النبي الكريم– صلى الله عليه وسلم– ويوحي بأن الحياة واللذة – كل اللذة– في معاينة هذه البقاع المطهرة والمعاهد الشريفة ، والوقوف أمام مقام النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم– ولثم ترابه الطاهر.

ولعل الكاتب عبر بالاستفهام هنا ليشرك معه القارئ فيما يشعر به من شوق ولهفة نحو الرسول– صلى الله عليه وسلم– والتعلق بمشاهدة البيت الحرام.

ومن ذلك – أيضا– قول أبي الحسن الجياني يتساءل على سبيل التمني أن يمتع نظره ويكحل عيناه بمرأى البقاع الحجازية المباركة فيقول : "كيف لي أن أمرغ الخد في عبير ثراها، أو أبلغ الجد الأعظم عندما أراها؛ هل يطيش عند ذلك لبي أو يذهل، أو يزيد أوامي عندما أرد ذلك المنهل؟، من لي بالخيف ومنى، وهل هما إلا أجل بغية ومنى؟، أظنك ضللت الطريق، وإلا فأينك من ليالي التشريق؟، وهلا أزدلفت إلى المزدلفة، ونقعت أوام النفس الكلفة؟، وتركت حطامك إلى الحطيم وزمزم، واقتديت في العزم بشنشنة من أخزم؟، أرأيت استلام الحجر حجراً، أم بقيت في ليل الغواية وقد تبلج لك الرشد فجرا؟، أم حجبت عن البيت العتيق، وقصرت عن التقصير، وما حلقت على التحليق؟، وما تنفعك الدموع المفاضة، وقد حرمت طواف الإفاضة؟...ليت شعري ما يسكن هذا الشوق المثار؟ وهل أعفر وجناتي في تلك المشاهد الكريمة والآثار؟!" (١١٠).

إن حنين الكتاب وشوقهم إلى زيارة الديار المقدسة جعلهم يعيشون هذه اللحظات بخيالهم، فان لم يستطيعوا أن يعيشوا بخيالهم راحوا يخاطبون أنفسهم

---

(١١٠)الذيل والتكملة: ٥/٢٩١ .

ويعبرون عن خلجات نفوسهم وما يدور فيها، والكاتب هنا يعبر عن شـوقه لزيـارة البقاع المقدسة والسير فوق تراب الأراضي الحجازية ، وهو لا يستطيع تحقيق هـذه الأمنية ، فما كان منه إلا أن يعبر عما يدور في نفسه بهذه التساؤلات الكثيرة التـي تنم عن قلب متلهف لأداء الفريضة، ورؤية البقاع الشريفة وزيارتها، وعقل لا يفتـأ يفكر في كيفية الوصول إلى هذه المشاهد العزيزة المنال.

هذه الاستفهامات تكشف عن إيمان عميق، وتديّن سكَن قلب الكاتـب المـؤمن المشوق لزيارة نبيه – صلى الله عليه وسلم– والمتلهف لرؤية الأماكن التي عـاش فيها ونالت من بركته ، والمتعطش لسكب العبرات والاعتراف بالزلات عـسى الله أن يغفر له ما قد مضى ، ويشفيه من سقمه الذي ألم به، ويكشف عنه ما اعتـراه مـن أثر الوجد والحزن، يؤكد ذلك قوله بعد هذه الاستفهامات الكثيرة : "ليت شـعري مـا يسكن هذا الشوق المثار؟ وهل أعفر وجناتي في تلك المشاهد الكريمة والآثار؟!.

إنه دائم التفكير في الوصول إلى هذه البقاع ، فقد تأجج الـشوق فـي قلبـه ، وأذكى الحنين إلي مكة والمدينة هذه التساؤلات التي تنم عن قلب مشتاق وعقـل لا ينقطع عن التفكير في أداء الفريضة وزيارة هذه الأماكن. إنه ينقـل إلـى المتلقـي الشحنات الشعورية والنفسية التي تمور بداخله من خلال هذا الاستفهام الذي أعانـه على نقل شعوره وأحاسيسه تجاه الرسول الكريم والمعاهد المطهـرة فـي أراضـي الحجاز.

أسلوب النداء :

ومن أساليب التعبير الواضحة في هذه الرسائل: النداء، وهو من الأساليب التي تساعد على إبراز المعنى وتوضيحه ، وتشد انتباه المتلقي ، وتلفت انتباهه.

ومن نماذج النداء قول القاضي عياض مستخدما أداة النداء (يا): "فيا محمداه، طال شوقي إلى لقائك، ويا أحمداه، ما كان أسعدني لو متع المسلمون ببقائـك، ويـا نبياه، عليك مني أفضل الصلوات والبركات والتسليم، ويا حبيباه، اذكرني عند ربـك،

في مقامك المحمود الكريم، ويا شفيعاه، اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظـيم" (١١١).

فنجد الكاتب يستخدم أداة النداء (يا) في خطابه إلى النبي – صـلى الله عليـه وسلم– ليؤكد على امتداد وتراحب أشواقه وحنينه إلى زيارته ، ويدعو الله –تعالى– أن يجعله شفيعه يوم المحشر، وهو هنا لا يستعمل النداء في معناه الحقيقي، وإنمـا لجأ إليه للتنبيه على عظمة من ينادي، والتفخيم من شأنه، وإيقاظ المتلقي وتنبيهـه إلى أن من يناديه ليس بشرا عاديا، وإنما هو من طال شوقه إلى رؤيتـه ، واشـتد حنينه إلى زيارته ، وهو شفيعه – بأمر به– من هول الموقف يوم القيامة، إنه محمد – صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك – أيضا– قوله في رسالة أخرى يدعو الله – تعالى– متضرعا إليـه أن يصلي ويسلم على الرسول – صلى الله عليه وسلم–: "أدعوك اللهـم وأتـضرع إليك، بكل من دعاك وناداك، يا الله، يا الله، يا رحمان، يا رحيم، يا حنان ، يا منـان، يا ديان، يا حليم، يا كريم ... أن تصلي على سيدنا ومولانا محمد، وأن تقبـل فينـا شفاعة سيدنا ومولانا محمد" (١١٢).

فالكاتب يكرر أداة النداء (يا) أكثر من مرة ، وهو هنا في مقام الرجاء ، فيدعو الله – عز وجل– ويلح عليه في الدعاء أن يصلي ويسلم على الرسول – صـلى الله عليه وسلم– صلوات كثيرة لا تنقطع ما دامت الحياة.

والنداء هنا يفيد الطلب والرجاء ، وهو دليل صـدق الكاتـب فـي محبتـه ، والشوق والحنين إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم.

أسلوب الدعاء والمناجاة

برز أسلوب الدعاء والمناجاة في هذه الرسائل بروزا واضحا، ففي ظلال البقاع المقدسة وخطاب النبي – صلى الله عليه وسلم – يطيب الدعاء، وتحلـو المناجـاة،

---

(١١١) أزهار الرياض: ٤/ ١٨.

(١١٢) السابق : ٤/٩٣.

وتستحب التوبة، وتسكب العبرات، حيث مقام القرب من الله – تعالى- والاعتراف بالذنب، والشوق، والحب ، ومناجاة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم-، والأمل في تلبية دواعي الحنين، وسكون الأشواق بالرحلة والزيارة، وأداء الفريضة.

وقد كثر الدعاء في هذه الرسائل في أولها، وفي وسطها، وفي آخرها، ذلك أن الكتاب يدعون ربهم أن يحقق لهم هذه الأمنية العزيزة المنال ، وأن يمتع قلوبهم بزيارة هذه البقاع المطهرة، وزيارة خير الأنام – صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال:"اللهم كما جعلتني من أمته، واستعملتني بسنته، وشوقتني إلى آثاره، وشغلت قلبي بتذكّره وتذكاره، وأريتني تلك المعالم المُنيفة خيالا، وخططت منها في الضمير مِثالا، وأريتنيها ملء السمع والفؤاد جمالا، فاشف بمرآها بصرا ضريرا، وبسناها يرتد بصيرا. واجعل لي فيها مُعرسا ومَقيلا، وضع عني من شوقها إصرا ثقيلا. اللهم أعدني بالقرب على بعده، واجعلني من المقتفين لهداه من بعده، واغمرني بين قبره ومنبره، ومبدأه ومحضره، ومصلاه ومنحره، وأنخ هذه الشيبة بباب بني شيبة، واغسلها هناك من ذنوبها وخطاياها، وعج إلى خاتم أنبيائك صدور مطاياها، وهب لي عزمة من أطاع، وبسطة من استطاع، وادفع عني الضرر والضرورة، ولا تُمتني حِلس البيت صرورة" (١١٣).

فنرى الكاتب يدعو الله –تعالى- أن يمتعه بالنظر إلى المعاهد الشريفة وأن يكتب له زيارة بيته المحرم، وهو لا يملك لزيارة هذه البقاع إلا أن يعرج بروحه في رحلة متخيلة إلى تلك الأماكن والبقاع الطاهرة ، ليكتحل بسناها ، ويطفئ لظى شوقه بمرآها ، ولو على سبيل التصور والتوهم ، لذا نراه لا ينفك يبتهل إلى الله –تعالى- أن لا يقضى أجله حتى يحقق أمله في زيارة بيته الحرام، وقبر نبيه عليه الصلاة والسلام.

---

(١١٣) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٧ . حلس البيت : ملازمه. الصرورة : الذي لم يحج.

ومن ذلك- أيضا- قول أبي الحسن الجياني: "اللهم يا رب فأنجد عبدك المسيء وأعنه على أداء الفريضة، وأشف من لواعج شوقها لبيتك الكريم ونبيك العظيم نفسه المريضة،اللهم فطيب قلبه بانتشاق ريح طيبة، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه في كرمك إلى إخفاق وخيبة ، إليك إلهي رغبتي وبكائي، اللهم يا رب فبلغه من ذلك سؤله وأمنيته، قبل أن تقضي منيته، وشفع صالح قوله بعاجل عمله، قبل حلول أجله، اللهم أنفعه بما ينطوي عليه من حب نبيك الكريم، وخليلك الذي بوأته أسنى مراتب التقريب والتكريم، وحبوته بين جميع خلقك بمزية التفضيل عليهم والتقديم، واختم لعبدك المسيء بخاتمة الخير والسعادة بفضلك يا ذا الفضل العظيم" (١١٤).

فنرى الكاتب يدعو الله سبحانه أن يعينه على أداء الفريضة ، وييسر له زيارة الأراضي الحجازية، وأن يسكن شوقه بانتشاق ريحها الطيب ، وأن يهدأ من لوعته بالوقوف أمام حرم نبيه الكريم ، وأن ينفعه بحبه، ويجعله شفيعا له ، وأن يختم له بخاتمة السعادة.

هذا الدعاء يكشف لنا عن حنين الكاتب الواضح ، وشوقه العارم إلى أداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- ومناجاة الله – تعالى- عند بيته المحرم طلبا للعفو والمغفرة .

أسلوب الأمر

كما استعمل الكتاب أسلوب الأمر ، وقد جاء على سبيل الحض في قول القاضي عياض : "صلوا بكرا وأصيلا، على من فضله الله تفضيلا، واتخذه حبيبا وخليلا، ونزل عليه القرآن تنزيلا، وكان له وليا ونصيرا ومعينا وكفيلا، وختم به رسله، ونهج على يديه الكريمتين سبله، وزكى قوله وعمله، وبلغه أمله، وبالشفاعة فضله"(١١٥).

---

(١١٤) الذيل والتكملة :٥/٢٩٣ .

(١١٥) أزهار الرياض : ٤/٨٧ .

فالكاتب يستخدم أسلوب الأمر المجازي على سبيل الحض والدعوة للإكثار من الصلاة والسلام على الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- ، وفي هذا ما يؤكد تعلق الكاتب بالرسول الكريم وحبه له.

وقد تأتي هذه الأساليب مجتمعة؛ ومن نماذج ذلك قول ابن الجد مخاطبا الرسول – صلى الله عليه وسلم – على لسان من صدر من بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام: "وكيف لا أحن إلى قربك ، وأتهالك في حبك، وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صمت ولا صليت، ولا سعيت ولا طفت؟! ، بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي، ويتأكد انقطاعي، وبك استشفاعي، وإليك مفزعي يوم الداعي؟!. فلا تنس لي يا رسول الله عياذي بك ولياذي، وإسراعي إلى زيارتك وإغذاذي، واذكرني في اليوم العظيم المشهود، عند حوضك المورود، وظلك الممدود، ومقامك المحمود. اللهم كما أعنتني على حج بيتك المحرم، وزور نبيك المكرم، فاجعله لي شفيعا، وتوفني على ملته مطيعا، ويسر لي كرة إلى مواطنه المقدسة ورجوعا، إنك على ذلك قدير، وبحقيقة دعائي عليم خبير" (١١٦).

يعترف الكاتب بحبه للرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- ، وهو لا يفتأ يفكر ويعيش هذه اللحظات التي تجمعه به ، وللحبيب- صلى الله عليه وسلم- من سمات العظمة والجمال ما يرفع منزلته في نفس الكاتب ، ويحرك كوامن الشوق للانتقال إليه، وإخباره بحبه، لذا راح يتساءل كيف لا يحن إليه وهو نبيه الكريم، وقدوته الحسنة ، وهو شفيعه بإذن ربه يوم القيامة ، لذا راح يناجيه أن يكون في زمرته عند حوضه الشريف، وأن يجعله من أهل شفاعته، ويدعو الله – سبحانه- أن يكرمه بأداء الفريضة، وزيارة النبي – صلى الله عليه وسلم.

---

(١١٦) الذخيرة: ٢٨٧/١/٢ .

والاستفهام واضح في قول الكاتب: (وكيف لا أحن إلى قربك؟ ... بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي؟...) والنداء والأمر في قوله : (فلا تنس يا رسول الله) ، والدعاء والمناجاة في قوله: (اللهم كما أعنتنني... الخ).

هذه الأساليب تؤكد رغبة الكاتب الملحة في أداء فريضة الحج ، والتمتع بمشاهد آيات الجلال والجمال في مكة والمدينة، وتكشف عن حنينه إلى زيارة الرسول -عليه الصلاة والسلام- ، كما تعمق طموح الكاتب في أن يستجيب الله -تعالى- رجاءه ، ويحقق أمنيته في أن ينعم بجوار البيت الحرام ، ومناجاة ربه عند مقام سيد الأنام.

أسلوب القسم

ومن أساليب التعبير في هذه الرسائل - أيضا- القسم ؛ وهو ضرب من ضروب الإنشاء غير الطلبي، وقد استعان به الكتاب في مواضع متفرقة من رسائلهم بما يعكس رغبة الكاتب في تأكيد وتثبيت فكرة معينة، أو تحقيق معنى في نفس المتلقي.

ومن نماذج القسم قول ابن الجنان مخاطبا الرسول - صلى الله عليه وسلم- : "ووحقك وهو الحق الأكيد، والقسم الذي يبلغ به المقسم ما يريد وما وخدت إليك ركاب إلا وللقلب إثرها التهاب، وللدمع بعدها سح وانسكاب، ويا ليتني ممن يزورك معها ولو على الوجنتين، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين، وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال، ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال، والله -تعالى- يمن على كتابي بالوصول والقبول، وعلي بلحاقي ببركتك ولو بعد طول"(١١٧).

إن حنين الكاتب وشوقه لزيارة الرسول -صلى الله عليه وسلم- أثر في نفسه، وسيطر عليه، وشمل جوانحه، فقلبه يحترق شوقا ، وعيناه تسح الدمع الغزار ، شوقا وحنينا إلى خير البشر- صلى الله عليه وسلم.

---

(١١٧) نفح الطيب: ٧/ ٤٢٥ .

وقد استعان الكاتب بالقسم تأكيدا لشوقه وحنينه العارم لزيارة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وتعبير له عن حبه ، وصدقه في محبته.

ومن ذلك – أيضا– قول أبي الحسن الجياني : "قسماً يا ذا الخلق العظيم بمقامك الأعظَم، إن حبك قد تخلل وسرى في الأعظُم، فهو روح النفس وغذاؤها، ويوح الأنس يسطع ضياؤها، بلبانه الطيب فطنت، وبرمامه المستصحب فطمت"(١١٨).

فالكاتب يستعين بالقسم لإثبات حبه للنبي – صلى الله عليه وسلم– ، وشوقه لزيارته، فحبه تخلل بين جوانحه ، وسرى في أعظمه، فهو غذاء روحه ، ونور قلبه، وهذا دليل الإخلاص في الحب ، وآية الإيمان بهذا النبي الكريم.

إن الكتاب استخدموا وسائل اللغة وأساليبها المختلفة في التعبير عن مشاعرهم وما يختلج في نفوسهم ، وقد استطاعوا أن يوظفوا امكانات اللغة وأساليبها المنوّعة للتعبير عن المعنى الذي يطلبونه، والفكرة التي يريدون الكشف عنها، وإبرازها للمتلقي، مما أضفى على نثرهم الجودة، وحقق له الإقناع والإمتاع.

رابعا– ظواهر أسلوبية

دارس هذى الرسائل يمكنه الالتفات إلى عدة ظواهر وسمات لغوية وأسلوبية ؛ ويمكنه كذلك حصرها في: السهولة والوضوح ، التكرار ، التناص الديني والأدبي، فضلا عن توشيح الأسلوب ببعض المحسنات البديعية، من مثل السجع، والجناس، والطباق ؛ والسطور والصفحات التالية تدعم ما ذهبنا إليه.

١– السهولة والوضوح

تبدو هذه الظاهرة واضحة جلية في هذه الرسائل ؛ إذ يعز علينا أن نجد ألفاظاً حوشية، أو عبارات معقدة، أو أساليب ملتوية، وهذا إن دل فإنما يدل على رقة الألفاظ وسلامتها، ووضوح الأسلوب وسهولته، وبعده عن الإبهام والغموض.

ومن نماذج ذلك قول القاضي عياض يذكر بعض صفات الرسول – صلى الله عليه وسلم : "صاحب القدر الجليل، والفعل الجميل، والطرف الكحيل، والخد الأسيل،

---

(١١٨) الذيل والتكملة: ٥/ ٢٩٢.

والسيف الصقيل، وعين السلسبيل، وكأس الزنجبيل، من أخبر به التنزيل، وبشر بـه التوراة والإنجيل، الموقر، المعزر، صاحب الخطبـة والمنبـر، والعمامـة والمغفـر، والقضيب والمحشر، والحوض والكوثر، والجبين الأزهر، والوجه الأقمر، والحـسب الأطهر، والنسب الأشهر، والحظ الأكبر، من بشر وأنـذر، وخـوف وحـذر، وحـج واعتمر، وحلق ونحر، وهلل وكبر، وجاهد وانتصر، وقاتل من كفر، وبدين الله أمـر، الطاهر المطهر، المنتخب من خيار أخيار مضر"(١١٩).

فنرى الكاتب في ثنائه على الرسول – صلى الله عليه وسلم – يستعمل ألفاظـا سهلة، واضحة لا غموض فيها ولا التواء، ومع سهولتها فهي قوية ، سليمة، غيـر مبتذلة، تروق للسامع، وتعجب القارئ.

ومن نماذج ذلك – أيضا– ابن الجنان : "وشهد الحجر والشجر، والماء من بين البنان يتفجر، والظبية والضب، والجذع المشتاق الصب، والشاة والبعير، والليث إذا هدأ أو سمع منه الزئير، والحي والجماد ، والقصعة والزاد بأن محمدا رسول الملـك الحق، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق، وصاحب اللـواء المعقـود، والمقـام المحمود، والحوض المورود، والقـول المـسموع ، والـذكر المرفـوع، والـصدر المشروح، والفخر الباهر الوضوح، والأنوار المتناقلة، والآثار المتداولة" (١٢٠).

فالكاتب يعدد بعض معجزات النبي – صلى الله عليه وسلم– ، ويـذكر بعـض خصاله في أسلوب سهل، وألفاظ واضحة سمحة لا توعر فيها، ولا غموض يعتريها، وقد دلت على حنينه وشوقه وعاطفته الصادقة نحو الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم.

ومن نماذج ذلك –أيضا– قول ابن الخطيب يناجي ربه ويتوسل بنبيـه ويطلـب شفاعته: "اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى، وآخرهم بالصورة، وأعطيته لواء الحمد يسير آدم فمَن دونه تحت ظلاله المنشورة، وملكت أمته ما زوى له من زوايـا البسيطة المعمورة، وجعلتني من أمته المجبولة على حبه المفطورة، وشوقتني إلـى

---

(١١٩) أزهار الرياض : ٤/ ٨٩ .

(١٢٠) نفح الطيب : ٤٢٢/٧ .

معاهده المبرورة ومشاهده المزورة، ووكلت لساني بالصلاة عليه وقلبي بالحنين إليه، ورغبتني بالتماس ما لديه، فلا تقطع منه أسبابي، ولا تحرمني من حبه ثوابي، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي، هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره، وشط مزاره، ولم يجعل بيده اختياره"(١٢١).

فالكاتب يناجي ربه ويدعوه برسوله الكريم أن يكون شفيعه يوم القيامة، وأن يجازيه على حبه له أحسن الجزاء. هذا الدعاء ينم عن حب الكاتب للرسول الكريم وتعلقه به وحنينه إليه وشوقه له ، وقد جاء أسلوب الكاتب سهلا، وألفاظه واضحة لا غموض فيها ولا التواء.

والسبب في رقة الألفاظ وسهولتها يرجع إلى طبيعة الموضوع ، فموضوع هذه الرسائل يدور حول تطلع الكتاب وشوقهم إلى زيارة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأداء الحج والعمرة، ومشاهدة البقاع المقدسة، وعند ذكر هذه الأماكن تحن النفوس إليها وتشتاق الأفئدة لها، وتدمع العين لمشاهدتها، فلا يجد المرء إلا أن يعبر عما يجيش في قلبه وما تمور به أحاسيسه بأسهل الألفاظ وأرق الأساليب ، وأحلى العبارات، وأعذب التراكيب.

هذه المواقف الجليلة لا تستدعي من الكاتب أن ينتقي العبارات، ويتأنق في الأساليب، وإنما يعبر عن تجربته، ويبث أحاسيسه وأشواقه بما يواتيه من الألفاظ الموحية، والكلمات العذبة المعبرة، فيجري الكلام على الألسنة كالماء سال من المكان العالي.

ولا نقصد بالسهولة هنا أن تكون الألفاظ مبتذلة أو رديئة، وإنما نعني اللفظ القوي الرصين الذي تطغى عليه السهولة والوضوح، والعذوبة والسلاسة، ويبتعد عن الغموض والإيهام.

٢– التكرار

---

(١٢١) أزهار الرياض : ٤/ ٤٣.

كما لجأ الكتاب إلى التكرار لتأكيد فكرة معينة، أو توضيح معنى يلح الكاتب على إظهاره، أو لفت المتلقي وإيقاظ انتباهه، أو التلذذ بذكر بعض صفات أو أسماء الله الحسنى ، أو اسم النبي – صلى الله عليه وسلم– وما شاكل ذلك .

وبين أيدينا نموذج للقاضي عياض يقول فيه : "يا لطيف، يا لطيف، يا خبير، أسألك اللهم وأتوسل إليك، بشفاعة نبينا محمد، بشجاعة نبينا محمد، ببراعة نبينا محمد، بطاعة نبينا محمد، بقناعة نبينا محمد، بسعادة نبينا محمد، بعبادة نبينا محمد، بزهادة نبينا محمد، بسيادة نبينا محمد، بديانة نبينا محمد ..... أن تصلي على سيدنا ومولانا محمد، وأن تقبل فينا شفاعة سيدنا ومولانا محمد"(١٢٢).

فنجد الكاتب يكرر عبارة (نبينا محمد) مرات كثيرة في هذه الرسالة ، فهو يدعو الله– تعالى– ويرجوه بسيدنا، محمد أن يصلي ويسلم عليه – صلى الله عليه وسلم– ، وأن يكون شفيعا له يوم القيامة.

هذا التكرار يكشف عن إجلال الكاتب للرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم، وتعظيمه لشأنه ، وإخلاصه في محبته.

ومن نماذج التكرار –أيضا– قول ابن الجنان : "السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا أبا القاسم، سلام من يمد إليك يد الغريق، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق، ويتقطع أسفا ويتنفس صعدا كلما ازدلف إليك فريق، وعمرت نحوك طريق ، ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق"(١٢٣).

فقد كرر الكاتب عبارة (السلام عليك) ثلاث مرات، وفي هذا تنويه بشأن النبي – صلى الله عليه وسلم – وعلو منزلته في نفس الكاتب ، وحبه الصادق له.

وقد وجدت ألفاظا وتراكيب بعينها تتكرر عند كتاب هذه الرسائل، من ذلك : قول ابن الجد: "واذكرني في اليوم العظيم المشهود، عند حوضك المورود، وظلك الممدود،

---

(١٢٢) أزهار الرياض : ٩٣/٤ .

(١٢٣) نفح الطيب : ٤٢٤/٧.

ومقامك المحمود"[١٢٤]. وقول ابن أبي الخصال: "المخصوص بالمقام المحمود، والحوض المورود، خطيبِ الأنبياء وإمامهم في اليوم المشهود"[١٢٥]. وقول القاضي عياض: "سيد المرسلين، وإمام المتقين، وشفيع المذنبين ... صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود"[١٢٦]. وقول أبي الحسن الجياني: "المصطفى المختار، قامع جيش الغواية وقد فار، ذو الحوض المورود، والمقام المحمود، واليوم العظيم المشهود"[١٢٧]. وقول ابن الجنان : "وشهد الحجر والشجر والماء .. بأن محمدا رسول الملك الحق، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق، وصاحب اللواء المعقود، والمقام المحمود، والحوض المورود" [١٢٨].

هذه التراكيب والعبارات التي يلح الكتاب على إبرازها وتتكرر عندهم – تومئ إلى أهمية العبارة ، أو الفكرة ، أو الصورة التي يعرض لها الكاتب ، فهو يريد أن يؤكد عليها ، ويبرزها للمتلقي، ويؤكد أهميتها عنده .

والكتاب– هنا – في إيرادهم هذه التراكيب والعبارات المكررة يؤكدون على عظمة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود، والشفاعة العظمى، ثم هم يلحون على ذلك وكأنهم يستجدون عطف رسولهم الكريم رجاء شفاعته يوم الدين بإذن ربه ، وفي هذا ما يشف عن تعلق الكتاب بالرسول – صلى الله عليه وسلم – وحبهم له ، وتمني زيارته ، ومناجاته عند مقامه الشريف.

---

(١٢٤) الذخيرة: ٢/١/٢٨٧.

(١٢٥) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٢.

(١٢٦) أزهار الرياض : ٤/ ١٤ .

(١٢٧) الذيل والتكملة : ٥/ ٢٨٩.

(١٢٨)نفح الطيب :٧/٤٢٢.

ومن هذه التراكيب والعبارات : قول القاضي عياض : "ورافع لواء الحمد يوم المحشر، المرسل إلى الأسود والأحمر، الآتي بالآيات والنذر، المتحدي بالمعجزات جميع البشر، المبعوث بجوامع الكلم، الشاهد على جميع الأمم"(١٢٩). وقول ابن أبي الخصال : "الذي جُعلت له الأرض مسجدا وطهورا، وأُحلت له الغنائمُ وكانت حِجرا مَحْجُورا، ونصر بالرعب شهورا، وأوتيَ جوامعَ الكلم فانتظمت لفظته سطورا، وبُعث إلى الأحمر والأسود فضلا كان له مذخورا" (١٣٠). وقول أبي الحسن الجياني: "إلى سيد المرسلين، ورسول رب العالمين، الذي جعلت له الأرض مسجداً وطهورا ... الذي انشق له القمر، وذان له الأسود والأحمر" (١٣١).

هذه التراكيب والعبارات المكررة تبين منزلة الرسول – صلى الله عليه وسلم – عند ربه ، وأنه في منزلة سامية لم يرْق إليها أحد من البشر ، وهي تكشف عن فضله على غيره من الأنبياء والمرسلين ، وتؤكد شمول الرسالة المحمدية.

ومن هذه التراكيب التي تتكرر عند الكتاب – أيضا– قول ابن أبي الخصال : "الحاشر العاقب، ذو المجد الثاقب" وقوله : " اللهم لا تحرمني طيب طيبة" (١٣٢). وقول الجياني : "العاقب الحاشر، ذو المناقب التي أعيت نشر الناشر" ، وقوله : "اللهم فطيب قلبه بانتشاق ريح طيبة"(١٣٣). وقول لسان الدين: "المخصوص بمناقب الكمال، وكمال المناقب، المسمى بالحاشر العاقب"(١٣٤).

---

(١٢٩) أزهار الرياض : ١٤/٤ ، ١٥ .

(١٣٠) رسائل ابن أبي الخصال : ٣٦٣.

(١٣١) الذيل والتكملة : ٢٨٨/٥، ٢٨٩ .

(١٣٢) رسائل ابن أبي الخصال :٣٦٤، ٣٦٥ ، ٣٦٧ .

(١٣٣) الذيل والتكملة : ٥/ ٢٨٩ ، ٢٩٣ .

(١٣٤) أزهار الرياض ٤٠/٤ .

إن تكرار عبارة: (الحاشر العاقب) يؤكد فضل الرسول – صلى الله عليه وسلم– وعلو منزلته، كما يشير إلى تعلق الكتاب بهذا النبي الكريم ، ويكشف عن محبتهم له، وتعلقهم به ، وتمني زيارته.

وتكرار عبارة (طيب طيبة/ ريح طيبة) يؤكد التعلق الشديد بهذا البلد الحرام، ويكشف عن أن زيارة البقاع المقدسة أمنية عزيزة المنال، فهو حديث النفس ، وأمنية الفؤاد ، والكتاب– هنا– يسألون ربهم ويناجونه أن يبلغهم حج بيته الحرام، وزيارة سيد الأنام– صلى الله عليه وسلم– ، وأن لا يحرمهم التمتع بمشاهدة معاهد الجلال والجمال في مكة والمدينة، وانتشاق ريحها الطيب (١٣٥).

والأمثلة على ذلك كثيرة، وهي تدل على ثقافة الكتاب الدينية التي أمدتهم بهذه الألفاظ والعبارات والتراكيب التي استقوها من الأحاديث النبوية ، كما تؤكد تأثر الكتاب ببعضهم، وتكشف عن نزوعهم الديني.

٣– التناص الديني والأدبي

من الظواهر الأسلوبية البارزة عند كتاب هذه الرسائل ظاهرة التناص ، وهو من الظواهر الفنية في الإبداع الأدبي ، إذ يستعين به الأديب ليوثق صلته بالتراث والروافد السابقة عليه، والتي ترسبت في ذاكرته بقصد منه أو دون قصد.

والتناص من المصطلحات المستحدثة في مجال الدرس الأدبي والنقدي، وهذا لا ينفي وجود معناه عند الدارسين القدامى، فقد دارت ملاحظاتهم حول تداخل المعنى

---

(١٣٥)لعل هذا التكرار هو ما يعرف بمصطلح (الموتيف)؛ والموتيف قد يكون كلمة (فعل، أو اسم، أو أداة) ، وقد يكون تعبيرا، أو تركيبا ، أو فكرة ، أو صورة تتكرر في نتاج أديب ما ، أو نتاجات مبدعين كثيرين ، ومن أمثلة ذلك: عيون المها أو (الأنا) عند المتنبي ، وعبارة (أدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح) في ألف ليلة وليلة، والحنين للفردوس المفقود في نتاج الأدباء وغير ذلك .
ويهدف الكاتب من وراء هذا (الموتيف) أن يومئ إلى أهمية العبارة ، أو الفكرة ، أو الصورة التي يعرض لها ويؤكد عليها ، ويبرزها للمتلقي. انظر : قصيدة المقاومة في شعر إبراهيم طوقان (الأبعاد والملامح الفنية): د. جميل عبد الغني محمد ص ٢٩٣ ، القاهرة ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.

أحياناً، وتداخل اللفظ أحياناً أخرى، ومن ثم كانت هذه الملاحظات مفتاحاً لمقولة (القدماء والمحدثين)، ثم مقولة (السرقات) وما يتصل بها بعد ذلك (١٣٦).

والتناص أساسه التفاعل والتشارك بين النصوص، وهذا يقتضي الحفظ والمعرفة السابقة بالنصوص السابقة، لأن النص يعتمد على تحويل النصوص السابقة وتمثيلها بنص موحد يجمع بين الحاضر والغائب وينسج بطريقة تتناسب وكل قارئ مبدع(١٣٧).

وهو يحتاج من الأديب ثقافة واسعة تمكنه من توظيف التراث السابق عليه توظيفا فنيا يحقق لعمله الهدف المرجو منه ، وهو لا ينفى عن الأديب أصالته وابتكاره، بل يؤكد صلته بالتراث وما سبق عمله من أعمال، وهو يهب النص قيمة فوق قيمته، ويضفي عليه القوة والأصالة، ويضمن جذب المتلقي وإقناعه.

وقد تعددت أنماط التناص عند كتاب هذه الرسائل فوجدنا: التناص القرآنى، والتناص بالحديث الشريف، والتناص بالشعر.

أ- القرآن الكريم

وجد الكتّاب في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف زادهم الذي مكنهم من التعبير عن خواطرهم ، وأسعفهم في ترجمة لواعجهم وأحاسيسهم تجاه الديار المقدسة، والرسول – صلى الله عليه وسلم.

والقرآن الكريم لا يستغني عنه الكاتب، ذلك أنه "أحوج الناسِ إلى الاستشهاد بكلام الله – تعالى- في أثناءِ محاوراته، وفصولِ مكاتباته ، والتَّمثُّلِ بنواهيهِ وأوامره ، والذكر لقوارعه وزواجره، وهو حِلْيةُ الرسائلِ وزينةُ الإنشاءاتِ ، وهو الذي يَشُدُّ قُوَى الكلامِ ، ويُثَبّتُ صحتَهُ في الأَفْهَامِ ، فمتى خلتْ منه كانت عاطِلةً من

---

(١٣٦) انظر: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانى: د.محمد عبد المطلب ص١٣٦، ١٣٨، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ، ط١/ ١٩٩٥م.

(١٣٧) انظر : التناص الشعري، قراءة أخرى لقضية السرقات: د.مصطفى السعدني، (المقدمة)ص ٨، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩١م.

المحاسنِ ، عاريةً من الفضائلِ ؛ لأنّه الحُجَّةُ التي لا تُـدْحضُ ، والحقيقـةُ التـي لا تُرْفَضُ"(١٣٨).

والمتأمل في هذه الرسائل يظهر له بوضوح حرص الكتاب على توظيف القرآن الكريم توظيفا فنيا يخدم أفكارهم ، فقد انتزع أسلوبه ونهجه وآياته إعجاب الكتـاب، وخلبت ألبابهم، فوجدوا فيه معيناً ثرا ينهلون منه ، ونموذجا فريدا ينهجـون علـي غراره ، ويغرفون من بحره.

والسبب- في تقديري- في عناية الكتاب بهذا المصدر المهم، وحرصهم علـى الأخذ منه، وتضفير رسائلهم به يعود إلى أمرين:

أحدهما : التدين الكامن في نفوس هؤلاء الكتاب الذي جعلهم يلجئون إلى كتاب الله – تعالى- يقتبسون منه، ويستوحون معانيه وأساليبه.

ثانيهما: وقوف الكتاب على قيمة هذا الكتاب المعجِز ، وإيمانهم بأن الاسـتلهام منه – بل من التراث الديني عامة- له بالغ الأهمية في الارتقاء بهم وبأدبهم، فهـو يضفي على نتاجهم الأدبي الجودة والأصالة، ويحقق له النجاح، ويجذب القلوب إليه، ويضمن له القبول والإقناع .

من نماذج ذلك قول ابن أبي الخصال يثني على الرسـول – صـلى الله عليـه وسلم- ويشيد ببعض صفاته: "يا واضعَ الإصر والأغلال، ورافع رايات الهدى علـى الضلال، ومبدلنا بالظل من الحَرور، ومخرجَنا من الظلمات إلى النور، ومُرْوِينا مـن الرحيق المختوم، والحوض الذي آنِيته بعدد النجوم، ومُحظينا بـالنظر إلـى الحـي القيوم"(١٣٩).

فنرى الكاتب في ثنائه على الرسول – صلى الله عليه وسلم – يستعين بالقرآن الكريم، فقوله: "بالظل من الحَرور" فيه إشارة إلى قولـه تعـالى:﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا

---

(١٣٨) القانون في ديوان الرسائل : علي بن منجب الصيرفي ت٥٤٢هـ ، تحقيـق: د. أيمن فؤاد سيد ص ٨ ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

(١٣٩) سورة فاطر : الآية (٢١).

ٱلْغُرُورُ﴾(١٤٠)، وقوله : "ومخرجنا من الظلمات إلى النور" يشير إلى قــول الله – تعالى- :﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١٤١).

والكاتب هنا يقرر حقيقة أثبتها الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم- ، فهو الذي أرسله ربه لهداية الناس وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، فنجــد الكاتب هنا يوظّف النّص المقتبس فيما نزل فيه ، دون أن يخرج به إلى معنى آخر أو توظيف جديد.

وقوله : "وَمُرْوِينا من الرحيق المختوم"، هو من قوله –تعــالى:﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ (١٤٢) في صفات الأبرار، وهذا فضل الله تعالى على عبــاده ، وقد أضفى ذلك على معنى الكاتب وضوحا وجلاء ، وقوة وأصالة.

ومن ذلك قول القاضي عياض : "اللهم وأطلق لساني بأبلغ الصلاة عليه وأسبغ التسليم، وأملأ جناني من حبه وتوفية حقه العظيم، واستعمل أركاني بأوامره ونواهيه في النهار الواضح والليل البهيم، وارزقني من ذلك ما يبوئني جنة النعيم، ويــشعرني رحماك وفضلك العميم، ويقربني إليك زلفى في ظل عرشــك الكــريم، ويحلنــي دار المقامة من فضلك، ويزحزحني عن نار الجحيم، ويقضي لي بشفاعته يوم العــرض، ويوردني مع زمرته على الحوض، ويؤمنني يوم الفزع الأكبر، يوم تبدل الأرض غير الأرض" (١٤٣).

---

(١٤٠) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٢ .

(١٤١) سورة المائدة : الآيتان (١٥، ١٦).

(١٤٢) سورة المطففين : الآية (٢٥).

(١٤٣) أزهار الرياض : ١٨/٤ ، ١٩ .

فالكاتب هنا يدعو الله أن يطلق لسانه بالصلاة والسلام على النبي –صلى الله عليه وسلم– ، وأن يرزقه شفاعته، وأن يباعده عن النار، ويدخله الجنة برحمته ، وقد استعان بالقرآن الكريم للتعبير عن هذه المعاني .

فقوله : "ويحلني دار المقامة من فضله" هو من قوله –تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (١٤٤) ، وكان يمكن للكاتب أن يستبدل الجنة بدار المقامة ، لكنه آثر هذا اللفظ القرآني لأنه يعبر عن المعنى الذي يريده وهو أنها دار الخلد المقيم، كذلك يكشف عن أن بلوغ هذه الدار هو بفضل الله – تعالى– وبرحمته.

وقوله: "يزحزحني عن نار جهنم" هو من قوله – تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (١٤٥). إن لفظة: (زحزح) تشير إلى أنه بعد عن النار بعد عناء، فالكاتب يتمنى من ربه أن يبعده عن النار، ويزحزحه عنها، ليكون من الفائزين بالجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.

وقوله: "يوم تبدل الأرض غير الأرض" من قول الله – تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ (١٤٦) ، وفيه إشارة إلى هول هذا اليوم العظيم، الذي لا ينجو من هوله إلا من كتب الله له النجاة .

هذه الحوارات مع النصوص القرآنية ساعدت الكاتب على إبراز المعنى الذي يريده ، وكشفت عن الهدف الذي يبغي إظهاره للمتلقي، وأسعفته في الإيفاء بغرضه، وعرض فكرته من أيسر الطرق، وقد رسخت المعنى ووضحته ، وصبغته بالأصالة والجودة، كما أدت إلى جذب المتلقي وإقناعه ، وأضفت على أسلوبه الرصانة والقوة.

---

(١٤٤) سورة فاطر: الآية (٣٥).

(١٤٥) سورة آل عمران : من الآية (١٨٥).

(١٤٦) سورة إبراهيم : من الآية (٤٨).

والأمثلة على ذلك كثيرة ؛ وهي تؤكد استعانة الكتاب بالقرآن الكريم، واعتمادهم عليه في الكشف عن المعنى ، وإبراز الفكرة وترسيخها، فكان المعين الثّر الذي ينهجون علي غراره ، ويستغلونه استغلالا مثمراً ، بما يكشف عن عقلية واعية، ومقدرة فنية في استحضار المعنى القرآني الذي يخدم الفكرة ويرسخها، ويجلي المعنى ويقويه.

ب- الحديث الشريف

لم يقلّ أثرُ الحديث النبوي الشريف في هذه الرسائل عن أثر القرآن الكريم ، وهذا أمر طبعي ؛ فالقرآن الكريم والحديث النبوي هما الينبوع الصافي الخصب ، والمنبع الذي لا تنقطع درره في مثل هذه الرسائل.

ومن الطبعي – أيضا- أن يكون الجانب الديني- عموما – أقوى الجوانب في تشكيل هذا النوع من الرسائل ، وقد ظهر ذلك – جلياً – في تلك الآيات والأحاديث ، والتي تفنّن الكتّاب في إيرادها في معرض رسائلهم.

– وقد توسّع الكتّاب في أساليب أخذهم من الحديث الشريف – على نحو توسّعهم في أخذهم من القرآن الكريم – لكن أسلوب (الحل) كان هو الأكثر استعمالاً ودوراناً في رسائلهم ، إذ نجد الكاتب يحل معنى الحديث الشريف أو بعض معناه ، ويضمنه كلامه ، وهذا المنحى أكثرها وروداً واستعمالا .

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال في النبي – صلى الله عليه وسلم : "إمامُ وفد الرحمان، وفرط ورَّاد الإيمان، الذي نكلت عن بسالته الضراء، وسلَّمت له في الخَفر العذراءُ، واعترفت لواقح الرياح ليمينه، واغْترفت لوائحُ الصباح من نور جبينه، الآخذ بالحَجُزات، الواردُ بالمعجزات" (١٤٧).

فقول الكاتب: "وفرط وراد الإيمان" هو من قول الرسول –صلى الله عليه وسلم–: "إني فرطكم على الحوض، وإني سأنازَع رجالاً فأُغْلَبُ عليهم، فأقول: يا رب، أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أَحدثوا بعدك"(١٤٨).

---

(١٤٧) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٣ .

(١٤٨) المسند للإمام أحمد بن حنبل: ٦٤/٤ ، حديث رقم (٣٨٦٦).

وقوله: "الآخذ بالحجزات" من قوله – صلى الله عليه وسلم –: "إن الله لم يحرّم حُرْمةً إلا وقد علم أنه سيطَّلعها منكم مُطَّلِعٌ، ألا وإني ممُسكٌ بحجزِكم أن تَهافَتُوا في النار كتهافت الفَرَاش والذباب"(١٤٩).

وقد استطاع الكاتب أن يحل هذه المعاني في نثره ، بما يؤكد تأثره بالحديث الشريف ومعرفته به ، واتصاله بهذا التراث النبوي، وقد أضفت هذه المعاني على نثره القوة والرسوخ .

ومن ذلك أيضا قول القاضي عياض :"رسول الله وخليله، وصفيه ونجيه، وخيرته من جميع خلقه، الذي جعل له الأرض مسجدا وطهورا، وأحل له الغنائم وكانت حجرا محجورا، ونصره بالرعب سنين وشهورا، وأنزل عليه القرآن هدى ونورا، فانتظم لفظه مسطورا، فأحيا نفوسا وشفى صدورا، وبعث إلى الأحمر والأسود ونهج سعيا كان مشكورا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ولهج في المقالة، وسد مسلك الضلالة، وقاتل أهل الشرك والجهالة، المختار من تهامة، المخصوص بالتاج والعمامة، واللواء والحوض والكرامة، الشفيع في أهوال يوم القيامة، المنقذ من الحسرة والندامة"(١٥٠).

فنرى الكاتب في ثنائه على النبي – صلى الله عليه وسلم– وذكر بعض شمائله وخصاله يحل قول النبي – صلى الله عليه وسلم– في الحديث الشريف: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِه خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»(١٥١).

---

(١٤٩) السابق : ٢/٥٥٥ ، حديث رقم (٣٧٠٤) .

(١٥٠) أزهار الرياض : ٤/٩١ .

(١٥١) صحيح مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) ١/٣٧٠ ، حديث رقم (٥٢١)، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٤١٢هـ– ١٩٩١م.

وفي هذا ما يدل على معرفة الكاتب بالحديث الشريف وكيفية الاستفادة منه في نثره بما يضفى عليه القوة والأصالة، كذلك كان للفظ الحديث القدرة على إيصال المعنى للمتلقي من أيسر طريق، وإبراز الفكرة، والتأكيد عليها.

إن الكتّابُ في هذه الرسائل أخذوا من القرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف، ومن خلال هذا التناص نستطيع أن نقف على مدى تغلغل الروح الدينية في نفوس هؤلاء الكتّاب التي كان من آثارها أن تأملوا القرآن الكريم والحديث الشريف ومعانيهما وألفاظهما، وراحوا ينهلون من معينها ويودعونها كتاباتهم ، ومن ثم أضحى التناص بالقران والحديث سمة بارزة في هذه الرسائل ، وذلك استجابة لعمق الحس الديني العميق الكامن في نفوس هؤلاء الكتاب ، واتخاذهم منه قاعدة ينطلقون منها في معالجة مثل هذه المواقف النفسية والروحية.

ج – الشعر

يقول عبد الحميد بن يحيى الكاتب في رسالته إلى الكتّاب يوصيهم برواية الشعر: "واروووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها"([١٥٢]).

وظاهرة التناص الشعري تبدو واضحة في هذه الرسائل، فطبيعة الكتاب الشاعرة– وكلهم شعراء– دفعتهم إلا الاستعانة بالشعر، ومزجه بالنثر لتحقيق الإمتاع الفني ، وإضفاء الصدق والأصالة على نثرهم ، وفي هذا ما ينم عن عقلية الكتاب الواعية، وحافظتهم القوية.

والكاتب – في مثل هذه الحالة – وإن لم يكن له فضل إنشاء هذا الشعر ، فإنّ له فضل اختياره منه ما يعينه على أداء المعنى، ووضعه في موضعه الملائم اللائق بالسياق، بما يضفى على المعنى الوضوح، ويحقق للفكرة القوة والرسوخ.

ومن نماذج ذلك قول ابن أبي الخصال في وفد الرحمن : "سعدوا بالمقدور ، وبلغوا حاجة في الصدور ، ونالوا من تلك المشاهد المعظمة هواهم ، وقضوا من

([١٥٢])كتاب الوزراء والكتّاب : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ، تحقيق : أ. مصطفى السقا وزميليه ص ٧٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٤م..

منى أقصى أوْطارهم ومناهم ، وسالت الأبـــاطح بأعنـــاق مطايـــاهم ، وزاروا تربـــة الشفيع ، وحلوا بمناخه العبق الرفيع" (١٥٣).

فنرى الكاتب يغبط الحجيج الذين يسر الله لهم أداء فريضة الحـــج علـــى هـــذه النعمة التي أكرمهم الله بها، فقد سعدوا بمشاهدة تلك المعاهـــد الكريمـــة ، ونـــالوا أمانيهم بمعاينتها، والوقوف بحرم المقام النبوي الشريف.

وقوله: "وقضوا من منى أقصى أوطارهم ومناهم ، وســـألت الأبـــاطح بأعنـــاق مطاياهم" من قول كثير عزة ، وينسب لغيره : (من الطويل)

ولّـــا قـــضَينا مِـــن مِنـــى كـــلَّ حاجـــةٍ ومـــسَّحَ بالأركـــانِ مَـــن هـــوَ ماســـحُ

وشُـــدت علـــى جـــدب المهـــاري رحالنـــا ولا يعلـــم الغـــادي الـــذي هـــو رائـــح

أخـــذنا بـــأطرافِ الأحاديـــث بيننـــا وســـالتْ بأعنـــاقِ المَطِـــيِّ الأبـــاطحُ (١٥٤).

ونلاحظ براعة الكاتب في تطويع النص الشعري لخدمة غرضـــه ، وملاءمتـــه للسياق والمعنى الذي أراده ، مما زاد المعنى وضوحا ، والفكرة عمقا ، وأضفى على نثره القوة والأصالة.

ومن نماذج ذلك – أيضا– قول القاضي عياض: مشيرا إلى بعض معجزاتـــه – صلى الله عليه وسلم– : "من لم يجعل الله به علينا في الدين من حرج، وأسرى بـــه من الفرش إلى العرش وعرج، واستسقى الغمام بوجهـــه فهمـــع، وانـــشق القمـــر لتصديقه نصفين ثم اجتمع، وعاد نور الشمس بدعائه لشروقه بعد الأفـــول ورجـــع، وانفجر الماء من بين أصابعه ونبع"(١٥٥).

---

(١٥٣) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٩١ .

(١٥٤) ديون كثير عزة، تحقيق:د. إحسان عباس ص ٥٢٥ ، دار الثقافة، بيـــروت ١٣١٩هـــ– ١٩٧١م.

(١٥٥) أزهار الرياض : ٤/ ١٥ ، ١٦ .

فنرى الكاتب في ذكره معجزات النبي- صلى الله عليه وسلم- يحدثنا عن معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر ، وتفجر الماء من بين أصابعه، وغيرها من المعجزات التي سجلها القرآن الكريم ، ورصدتها كتب السيرة النبوية.

وقوله : "واستسقى الغمام بوجهه فهمع" هو من قول أبي طالب بن عبد المطلب:(من الطويل)

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل (١٥٦)

وهو يؤكد وقوف الكاتب على صفات الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم- وشمائله، ويكشف عن فضله، ويوحي بمنزلته عند ربه.

ومن ذلك -أيضا- قول أبي الحسن الجياني: "كتبته وأنا أتنفس الصعداء ، وأناجي بل أغبط أهل زيارتك السعداء ، وللزفرات تصعد وانحدار ، وللعبرات تردد في الجفن وانهمار ، طورا تسيل كالغمامة الثجاجة ، وتارة كأني أنظر من وراء زجاجة" (١٥٧).

فالكاتب في حديثه إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- ، واعترافه بشوقه وحنينه إليه يغبط أهل زيارته السعداء، الذي أكرمهم الله بمشاهدة مقامه الشريف ، ودمعه يسيل حزنا وألما، كأنه الغمامة التي أرسلت المطر المدرار.

وقوله: "كأني أنظر من وراء زجاجة" هو من قول مجنون ليلي، وينسب لغيره : (من الطويل)

نَظَرتُ كَأَنّي مِن وَراءِ زُجاجَةٍ إلى الدارِ مِن ماءِ الصَبابَةِ أَنظُرُ (١٥٨).

---

(١٥٦) ديوان أبي طالب بن عبد المطلب: صنعة: أبي هفان المهزمي البصري، وصنعة: علي بن حمزة البصري، تحقيق : محمد حسن آل ياسين ص ٧٥ ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت، لبنان ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

(١٥٧) الذيل والتكملة : ٥/ ٢٩٠.

(١٥٨) ديوان مجنون ليلى: تحقيق: عبد الستار أحمد فراج ص ١٠٥ مكتبة مصر، القاهرة ١٩٧٩م.

والرابط بين الكاتب والشاعر أن كليهما يشكو ألـم الـشوق ولوعـة الفـراق؛ فالجياني يشكو لوعة الشوق إلى جناب رسول الله –صلى الله عليه وسـلم ، ويتـألم من عدم استطاعته الزيارة والوصول إليه ، والمجنون يتشوق إلى أحبته الذين رحلوا ، ويبكي فراقهم ، ويتمنى لقاءهم.

هذا التناص الشعري يدل على بصر الشاعر بالشعر القديم ، وحفظة هذا التراث القيم الذي يأخذ منه ما يعينه في أداء المعنى ، وإبراز الفكرة ، وإقناع المتلقي.

ومن ذلك –أيضا – قول لسان الدين بن الخطيب في وصف المعاهد الحجازيـة الشريفة: "فيا لها من معاهد فاز من حياها، ومشاهد ما أعطر رياها، بلاد نيطت بهـا عليك التمائم، وأشرقت بنورك منها النجود والتهائم، ونزل في حجراتها عليك الملك، وانجلى بضياء فرقانك فيها الحلك، مدارس الآيـات والـسور، ومطـالع المعجـزات السافرة الغرر" (١٥٩).

فقوله : بلاد نيطت بها عليك التمائم" من قول ابن ميادة: (من الطويل)

بِـلادٌ بِهـا نيطـت عَلَـيَّ تَمـائِمي وَقُطِّعـنَ عَنّـي حـينَ أَدرَكَـني عَقلـي(١٦٠)

وهو يدل على تعلق الكاتب بهذه المعاهد الشريفة، وتمني زيارتها ومـشاهدتها ومناجاة الله تعالى في حرمها، وإجلاله لها ، ومعرفته قدرها وشرفها ، فهي مدارس الآيات ، ومطالع المعجزات، ومهبط الآيات.

إن كتّاب هذه الرسائل كانوا يستلهمون أشعار القدماء ، ويحلونها في كتاباتهم ، ويوسّعون لألفاظهم وعباراتهم في رسائلهم ما وسعهم ذلك ؛ ليجمعوا إلـى فطـرتهم في الكتابة ما يدور من المعاني عند غيرهم من الشعراء ، بل كان ذلك آية البراعـة، وأمارة المجيد!. يقول ابن عبد الغفور الكلاعي: "وكان المجيد كثيراً ما يُـضمِّن فـي رسائله أشعاره، وأشعار غيره"(١٦١).

---

(١٥٩) أزهار الرياض ٤/٤١.

(١٦٠) شعر ابن ميادة :تحقيق : د. حنا جميل حداد ص ١٩٩ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م.

(١٦١) إحكام صنعة الكلام :ص ٧١ .

لقد كان التناص من الظواهر التي برزت في هذه الرسائل بروزا واضحا، إذ نجد الكتاب قد استعانوا به ، فأخذوا من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربي ما أسعفهم في التعبير عن خواطرهم ، وأعانهم في ترجمة مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه الديار المقدسة، والرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم.

٤– المحسنات البديعية

تطور النثر الأندلسي في الفترة التي كتبت فيها هذه الرسائل، ودخل مرحلة الصناعة والزخرفة اللفظية من سجع وجناس وطباق وغيرها من ألوان البديع التي شاعت عند كتاب القرن الرابع الهجري، ثم دخل النثر بعد ذلك مرحلة التكلف والإسراف في الصناعة، وهذه الفترة التي غلبت عليها الصنعة أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني في النثر المشرقي وظلت هي المسيطرة – غالبا– على نثر الكتاب حتى نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس(١٦٢).

والمحسنات البديعية من الظواهر الأسلوبية البارزة في هذه الرسائل، إذ نجد الكتاب يلجئون إليها لإضفاء نوع من الجمال الفني على الأسلوب، وتحسين العبارة، وزيادة التنغيم الموسيقي. وسنحاول الوقوف مع أهم المحسنات البارزة في هذه الرسائل، ومنها:

أ– السجع

برز السجع في هذه الرسائل بروزا واضحا، إذ استعمله الكتاب ولجئوا إليه، وفي هذا ما يعكس عناية الكتاب وافتنانهم في تزيين أسلوبهم بهذا اللون البديعي.

ومن نماذج السجع قول ابن الجد : "صلوات الله على خاتم الرسل، وناهج السبل، وناسخ جميع الملل، ومجلي الظلم والظلم، ومحبي القلوب بنور الهدى

---

(١٦٢) انظر : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره : د. محمد بن شريفة ص ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٢٠ ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٣٨٥هـ– ١٩٦٦م.

والحكم، ومقلد النذارة والسفارة إلى كواف الأمم، وعليه من لطائف التسليم ما يربي على عدد النجوم، ويزري بالمسك المختوم، ويقتضي باتصاله واحتفاله رضى الحي القيوم ، كتبت يا أكرم الأنبياء وسائل، وأعظمهم فضائل، وأعمهم فواضل، وأتمهم فرائض ونوافل، وقلبي بحبك معمور ومأهول، وعلى الإيمان بك مفطور ومجبول، وبتمثل ما عاينته من عظيم آثارك مهول مشغول" (١٦٣).

يفتتح الكاتب رسالته بالصلاة والسلام على الرسول – صلى الله عليه وسلم– ويثني عليه، فهو خاتم الأنبياء الكرام ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور ، والهادي بإذن ربه إلى الصراط المستقيم ، ثم راح يصور ما تمور به أحاسيسه وأشواقه الجارفة إلى نحو الرسول الكريم، فقلبه معمور بحبه، بل هو قد فطر على هذا الحب وخلق به، مشغول بزيارة مشاهده وآثاره.

وقد راح الكاتب عن طريق السجع يشبع هذه الفكرة ويحاول أن يبرزها، ليكشف عن الشوق الجارف، والحنين الظامئ الذي يكنه بين جنباته . فنجد الفواصل: (الرسل / السبل / الملل)، (الظلم / الحكم / الأمم) ، (المختوم / القيوم) توحي بإجلال الكاتب وإيمانه بالرسول – صلى الله عليه وسلم– ، فهو خاتم الرسل، وهادي البشر، ومخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربه.

والفواصل (وسائل / فضائل) ، (فواضل / نوافل) ، (مأهول / مجبول / مشغول) توحي بحنين الكاتب الجارف إلى زيارة النبي –صلى الله عليه وسلم– وانشغاله بالتفكير الدائم في مشاهدة الأراضي الحجازية والبقاع المطهرة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتحقيق هذه الأمنية.

ومن النماذج الذي أدى فيها السجع دورا مهما في إيضاح المعنى، وتأكيد الفكرة قول ابن الخطيب معبرا عن شوقه وشوق سلطانه إلى معاينة المشاهد المطهرة، والبقاع الحجازية، ويشكو عدم استطاعته لانشغاله بمجاهدة النصارى:

---

(١٦٣) الذخيرة ٢/١/ ٢٨٦ .

"كتبه إليك يا رسول الله ... عن قلب بالبعد عنك قريح، وجفن بالبكاء جريح وتأوه عن تبريح، كلما هب من أرضك نسيم ريح، وانكسار ليس له إلا جبرك واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك، وإن يقض فقبرك ، وكيف لا يسلم في مثلها الأسى، ويوحش الصباح والمسا، ويرجف جبل الصبر بعدما رسا، لولا لعل وعسى، فقد سارت الركبان إليك ولم يقض مسير، وحوّمت الأسراب عليك والجناح كسير، ووعدت الآمال فأخلفت، وحلفت العزائم فلم تف بما حلفت، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل، إلا على التمثيل، ولا من المعالم الملتمسة التنوير، إلا على التصوير، مهبط وحى الله – تعالى– ومتنزل أسمائه، ومتردد ملائكة سمائه، ومدافن أوليائه، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه، رزقني الله تعالى الرضى بقضائه، والصبر على جاحم البعد ورمضائه" (١٦٤).

يصور الكاتب لواعج سلطانه وشوقه الجارف إلى زيارة البقاع المقدسة والمعاهد الحسان في أراضي الحجاز ، ليؤكد حزنه الشديد على عدم الاستطاعة، فقد سارت الركبان ولم يستطع اللحاق بهم .

والكاتب يعوض عدم استطاعته أو رِيّ غلته بالزيارة الخفيفة بمعايشة هذه الرحلة بخياله: "ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل، إلا على التمثيل، ولا من المعالم الملتمسة التنوير، إلا على التصوير" .

وقد استعان الكاتب بالسجع للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه من خلال الإكثار من الجمل المسجوعة التي تعطي كل فاصلة منها بعدا آخر غير الذي تعطيه الأولى ، فالمتأمل هذه الفواصل : (قريح / جريح / تبريح) وما توحي به من حنين السلطان والكاتب –أيضا– يلاحظ تعانق الشكل مع المضمون في إبراز المعنى وتوضيحه وهو الحنين الواضح، والشوق الجارف إلى الرسول الكريم والبقاع المقدسة .

---

(١٦٤) أزهار الرياض : ٥١/٤ .

والمتأمل الفواصل (جبرك/قربك/ قبرك) ، (الأسى/ المسا/ رسا / عسى) يرى أن السجع هنا يؤكد ترقب الكاتب الدائم إلى زيارة هذه البقاع، وتطلعه الواضح إلى معاينتها، وزرف الدموع الغزار هناك عسى الله أن يغفر له الزلات .

كما نجد السجع بين الكلمات (أسمائه / سمائه / أوليائه / أنبيائه) يؤكد تعلق السلطان – والكاتب أيضا – الواضح بهذه المشاهد الكريمة وتمني زيارتها ولو خيالا

كما يكشف السجع بين (قضائه / رمضائه) عن رضا الكاتب وصبره على قضاء الله –تعالى– وقدره، وإيمانه بأن الأمر كله بيد الله .

إن السجع بما يشتمل عليه من إيقاع موسيقي رنان ، يساعد على إحاطة المعنى من جميع جوانبه، حيث يجد الكاتب أمامه فسحة وحرية في تكثير الجمل المتحدة الوزن والقافية، والتي تدور حول المعنى الواحد من جهات مختلفة ونواحٍ متعددة ، فتضيف كل جملة من هذه الجمل ظلالاً تغطي المعنى من جميع جوانبه ، ومن ثم يساعد السجع الكاتب على الإحاطة بجزئيات المعنى الذي يعرض له على نحو شافٍ تام ! .

والسجع في هذه الرسائل ليس حلية فحسب، وإنّما يُعد – بجانب ذلك – لبنة فنية تتآزر مع غيرها من لبنات العمل الفني لتزيد المعنى تكثيفاً ووضوحاً ، وتضفى على الأسلوب رونقاً وجمالا.

ب– الجناس

ويأتي الجناس ضمن هذه المحسنات البديعية التي تنتشر في جنبات هذه الرسائل، وهو ما يعكس حرص الكتاب على تزيين أسلوبهم بما يضفي عليه البهاء والجمال.

ومن النماذج التي اعتمد فيها الكاتب على الجناس في إبراز معانيه وتأكيدها قول ابن الجنان: "لمحمد خير الأنام، ولبنة التمام، عليه أفضل الصلاة والسلام، خيرة المفاخر، يتضاءل لعظمتها المفاخر، والمعالي، يتصاغر لعزتها المعالي، والمكارم، يعجز عن مساجلتها المكارم، والمناقب، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب، والمحامد،

لا يبلغ مداها الحامد، والمماجد، لا يتعاطى رتبهن المماجد، والمناسب، سمت بجلالهن المناصب، والعناصر، طيبها الشرف المتناصر، والفضائل، تفجرت في أرجائهن الفواضل، والشمائل تأرجت بعرفهن الجنائب والشمائل، فلا مجاري لسيد البشر، الآتي بالنذارات والبشر، فيما حباه الله تعالى به وخصه، وقصه علينا من خلقه العظيم ونصه، عند رسم مدائحه يوجد المعول، وفي الثناء عليه يستقصر الكلام المطول"(١٦٥).

نجد الكاتب يثني على النبي – صلى الله عليه وسلم – ثناء حسنا، فجميع الخلق أمامه أصاغر، وكلُ نسب دون نسبه ، فلو جاء أبلغ الكتاب بمداد البحر لما استطاع أن يوفِّه حقه من الوصف ، فهو –صلى الله عليه وسلم– إمام الأنبياء والمرسلين ، وسيد الخلق أجمعين .

والجناس التام واقع بين: كلمة (الشمائل) الأولى بمعنى الفضائل والخصال الكريمة ، والثانية رياح الشمال ، وهو يدل على سمو منزلته ، وعلو قدره . والجناس الناقص واقع بين الكلمات: (الأتام/ التمام/ السلام) ، (المفَاخر/ المُفاخر)، (المعالي/ المعالي) ، (المَكارم/المُكارم) ، (المحامد/ الحامد)، (المَماجد/المُماجد)، (البَشر/البُشر) ، (خصه/ نصه)، (المعول / المطول). وهو يوحي بقدر النبي – صلى الله عليه وسلم– في نفس الكاتب وتعظيمه وإجلاله له ، كما يكشف عن شوقه إليه.

وأرى تكلف الكاتب البيّن في استعانته بهذا الجناس وكأنه يقف مع العبارة ليجد ما يناسبها وما يجانسها ، ولا عجب في ذلك فقد كان ذلك سمة العصر .

هذا الجناس – مع التكلف الواضح فيه– يوحي بعظمة النبي – صلى الله عليه وسلم– ، كما يكشف عن حب الكاتب الصادق له، وتعلقه به.

ومن ذلك قول أبي الحسن الجياني يتحسر على عدم استطاعته زيارة النبي – صلى الله عليه وسلم– ومشاهدة البقاع المقدسة: "إني كتبت وفي فؤادي لوعة :

---

(١٦٥) نفح الطيب : ٧/ ٤٢٢ .

حسرة على تفريط حره يتقد على الأحشا، وندما على أمل أخشى أن يفصل بين قلبيه والرشا ، وكيف ألذ حياة ، أو آمن من الخطوب بياتا ولم أعبر لزيارتك سبسبا ولا لجة، ولا أقمت على دعوى الشوق إليك برهانا ولا حجة، ولا أحرمت لحرم الله وحرمك ، ولا مددت يد الافتقار فيه إلى كرمك ، بعيد على دعوى المحبة أن تصح، وعلى خلّب العزم يشح أن يسح، وإلا فعنان البطل خوار ، والمحب إذا ما اشتاق زوار"(١٦٦).

يصور الكاتب حسرته وألمه وحزنه على عدم استطاعته زيارة النبي – صلى الله عليه وسلم – فقلبه يحترق شوقا إلى زيارته ، والوقوف أمام مقامه الشريف، وتأمل البقاع المباركة في أراضي الحجاز ، فبدون رؤيته لا يجد للحياة لذة ولا للعيش هناء ، فلا تحلو حياته، ولا يهدا باله إلا بزيارة خير الخلق –صلى الله عليه وسلم .

وقد استعان الكاتب بالجناس للتعبير عن هذا المعنى ، فنجد الجناس الناقص بين (الأحشا / الرشا)، (لجة /حجة) ، (حرمك/ كرمك)، (تصح / يسح) ، (خوار /زوار) وقد جاء طيعا مناسبا، وأكد المعنى وزاده وضوحا ، كما أضفى عليه بهاء وجمالا، وموسيقى وإيقاعا .

إن الجناس هنا يظهر لنا طول نفس الكاتب في التعبير عن أشواقه وحنينه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– ، وهو يدل على حرص الكاتب على أداء فريضة الحج ، ويكشف عن تشوقه إلى المعاهد الشريفة، وزيارة النبي – صلى الله عليه وسلم– ، وقد جاء موضحا للمعنى، مؤكدا للفكرة، كما أضفى على الأسلوب بهاء وجمالا بما يتركه في أواخر الفقرات من موسيقى هادئة تسري بين العبارات فتجذب المتلقي، وتثير انتباهه.

---

(١٦٦) الذيل والتكملة : ٥/ ٢٩٠ .

إن الجناس إلى جانب كونه زينة لفظية تضفي على الأسلوب رونقا وبهاء، وخفة وجمالا، وموسيقى هادئة تجذب المتلقي، فهو قد ساعد على إبراز المعنى وتوضيحه وتقريبه، وترسيخ الفكرة والتأكيد عليها ، مما كان له أكبر الأثر في لفت انتباه المتلقي وإمتاعه.

ج- الطباق

كما جاء الطباق ضمن الألوان البديعية التي اتكأ عليها الكتاب في هذه الرسائل؛ فللطباق دوره المؤثر في الكشف عن المعنى، وإبراز الصورة بما يحدثه من الضدية التي تقع بين الألفاظ، إذ تثير القارئ ،وتفاجئه، وتجذب انتباهه.

ونحاول الآن الوقوف على قيمة الطباق الفنية في هذه الرسائل ، وما الذي أضافه الطباق إلى المعنى، وما أضفاه على الفكرة.

ومن النماذج التي اتكأ الكاتب فيها على الطباق في عرض فكرته وإبراز معانيه قول ابن الجنان: "كتبته يا رسول الله وقد رحل المجدون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت... وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المقيم المقعد ولئن كنت ممن خلفته عيوبه، وأوبقته ذنوبه، ولم يرض للوفادة وهو مدنس، على ذلك المقام وهو المطهر المقدس، فعندي من صدق محبتك، وحب صحبتك، والاعتلاق بذمتك، ما يقدمني وإن كنت مبطئا، ويقربني وإن كنت مخطئا، فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك، فهي أفضل المنى وتوسل لي إلى مولى بين فضيلتك، وتقبل وسيلتك في النقلة من هناك إلى هنا ،واقبلني وإن كنت زائفا، وأقبل علي وإن أصبحت إلى الإثم متجانفا، فأنت عماد أمتك جميعا وأشتاتا، وشفيعهم أحياء وأمواتا"(١٦٧).

الكاتب هنا يتحسر على عدم استطاعته اللحاق بركب الراحلين إلى زيارة البقاع المقدسة ، وبين جنبيه أشواق لا يستطيع أن يكتمها ، ثم هو يشكو ذنوبه التي أثقلته عن اللحاق بركب الحجيج ، ومنعته من الزيارة ، ويعتذر عن هذه الذنوب ويعترف

---

(١٦٧) نفح الطيب : ٤٢٥/٧.

بصدق محبته للنبي – صلى الله عليه وسلم– ويرجو أن يكون شفيعه عسى الله أن يغفر له ذنوبه، ويعفو عن زلاته.

والطباق واضح بين (رحل/ أقمت) ، (استقام/ ما استقمت) ، (المقيم/ المقعد) ، (مدنس/ المطهر)، وهو يبين تحسر الكاتب على عدم استطاعته الذهاب إلى الديار الحجازية، ويؤكد حنينه الواضح، وشوقه البين إلى زيارة البقاع المقدسة ، والتنعم بالمثول أمام مقام النبي – صلى الله عليه وسلم– .

والطباق بين (جميعا/ أشتاتا) ، (أحياء/أمواتا) يؤكد أن النبي – صلى الله عليه وسلم– هو ملاذ الخلق جميعا في الحياة وفي الممات ، وهو شفيعهم يوم القيامة.

هذا الطباق يكشف ما تنطوي عليه نفس الكاتب من حزن شديد، وألم واضح لعدم استطاعته اللحاق بركب الحجيج ، كما يشف عن شوقه وحنينه إلى مشاهدة البقاع المقدسة، ومقام النبي –صلى الله عليه وسلم– وقد أكد المعنى وجلاه ، وأبرز الفكرة ورسخها في ذهن المتلقي، وأكد شوق الكاتب إلى أداء الفريضة، وتحقيق هذه الأمنية الغالية .

ومن نماذج الطباق – أيضا– قول ابن أبي الخصال يثني على النبي – صلى الله عليه وسلم– ويشيد ببعض صفاته: "ياواضعَ الإصر والأغلال، ورافع رايات الهدى على الضلال، ومبدلنا بالظل من الحَرور، ومخرجَنا من الظلمات إلى النور، ومُرْوينا من الرحيق المختوم، والحوض الذي آنِيته بعدد النجوم"(١٦٨).

يبين الكاتب أن النبي – صلى الله عليه وسلم– بعثه ربه للعالمين بشيرا ونذيرا، فرفع لواء الهدى، وأزاح راية الضلال ، فهدى الناس من بعد ضلالهم ، وأخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وقد أحسن ابن أبي الخصال وأجاد في إيراده هذه الصورة، إذ استطاع أن يوازن بين حال البشرية قبل مبعث الرسول– صلى الله عليه وسلم– وبعد مبعثه ،

---

(١٦٨) رسائل ابن أبي الخصال : ٣٦٥.

يظهر ذلك من خلال صيغة اسم الفاعل (يا واضع ، ويا رافع)، ومن خلال الكلمات (مبدلنا ، مخرجنا ، مروينا) .

والطباق هنا واقع بين (الهدى/ الضلال) ، (الظل / الحرور) ، (الظلمات/ النور) وهو يؤكد تغير حال البشرية بعد مبعث النبي – صلى الله عليه وسلم- من الظلمة التي عمتها، والجهالة التي طغت عليها إلى النور الذي انتشر في ربوع الأرض بعد مبعث الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم -، كما يوضح أنه الذي أنقذ البشرية ، وهداها بعد الضلال، وأخذ بأيديها إلى جنة الله سبحانه .

ومرد جمال الطباق هنا إلي مقدرة الكاتب الفنية ، وإحكام قبضته علي أدوات الفن، "فالمطابقة عندما تقع بين يدي فنان يحس أبعاد الكلمة ومدلولها ، يستطيع أن يأتي بها لتحدث تزاوجاً فنياً سائغا مقبولا"(١٦٩).

وصفوة القول: إن الكتاب استعانوا بالمحسن البديعي لتزيين أسلوبهم وإضفاء مسحة جمالية عليه، كما وشّوه به لإحداث نوع من الإيقاع الموسيقي يطرب الآذان ، ويجذب المتلقي إلى سماع هذا النثر والإقبال على قراءته ، كما اعتمدوا عليه كوسيلة لإبراز المعنى وتوضيحه ، وترسيخ الفكرة والتأكيد عليها، وعرض المضمون في صورة تجذب المتلقي ، بما يحقق لهذه الرسائل الإمتاع والإقناع معا.

---

(١٦٩) المذهب البديعي في الشعر والنقد : د. رجاء عيد ص ١٦٩، منشأة المعارف، الإسكندرية ،بدون.

الفصل الرابع: القيم التصويرية

مدخل: الصورة وأهميتها

عبر الكتاب عن تجربتهم في قالب أدبي أخاذ ينبئ عن انفعال حقيقي، وإحساس حي بالمواقف التي يعالجونها، والفكرة التي يرومون التعبير عنها، وقد استطاعوا بث مشاعرهم، والتأثير في المتلقي، مما حقق لنثرهم الإقناع والإمتاع في آن.

وتتجلى قدرة الكاتب في إبداعه الصورة الفنية التي يعبر بها عن إحساسه ومشاعره . والصورة في أبسط تعريف لها: "رسم قوامه الكلمات" (١٧٠). وهي "الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة"(١٧١). فهي تعبر "عن حالة نفسية معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه في الحياة (١٧٢).

وهي طريقة أداء المشاعر والأفكار ، والتعبير عنها ، والمبدع يدرك الحقائق ويبني عالمه الأدبي إما بالمحاكاة وإما بالرؤيا، وتتم عملية البناء بتوضيح هذه الرؤيا وتجسيدها بالصورة(١٧٣).

والصورة لا تؤدي وظيفتها إلا إذا كان الخيال هو الذي يقودها؛ فللخيال دوره المهم والحيوي في تكوين الصورة الأدبية، لذا فهو يرتبط بها ارتباط وثيقا، فالخيال

---

(١٧٠) الصورة الشعرية : سيسل دي لويس ، ترجمة د. أحمد نصيف الجنابي وزميليه ص ٢١ ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ١٩٨٢م.

(١٧١) النقد الأدبي الحديث : محمد غنيمي هلال ص ٤٤٢ ، دار الثقافة ودار العودة، بيروت ١٩٧٣م.

(١٧٢) قضايا النقد الأدبي المعاصر د. محمد زكي العشماوي ص ١٠٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م.

(١٧٣) الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس : ساسين سيمون عساف ص ٢١ ، ٢٧ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، ط١/١٤٠٢ – ١٩٨٢م.

"من أنفع المواهب النفسية في فن الأدب ، لا يكاد يستغني عنه باب من أبوابه، لأنه خير وسيلة لتصوير العاطفة التي هي العنصر الأول في هذا الفن الجميل"(١٧٤).

والصورة "لا تخرج إلى حيز الوجود إلا من خلال تجربة مرت بالأديب، تحرك بها وجدانه، ومارت بها عواطفه، ففارت تلك التجربة حتى تجاوزت حدود الشعور الداخلي، فانتقلت في صور شتى لتعبر حاجز الشعور إلى الإحساس، لتعبر عن مكنون النفس وخلجات الفؤاد ، وقد اصطنع لها الأديب سياقا بيانيا خاصا قوامه الألفاظ، والتراكيب، والإيقاع الموسيقي، والرمز الإيحائي الذي يتولد عن الألفاظ والعبارات، وكل ما يدخل المعجم الشعري من استخدام الحقيقة والمجاز، وأدوات النداء، والاستفهام، وتردد العبارات بين الجمل الفعلية والاسمية، واستخدام الصورة للفعل ماضيا أو مضارعا، وحسن التعليل، أو التخلص، أو التقسيم، وما يزين الصورة من محسنات بديعية"(١٧٥).

وتتجلى أهمية الصورة في أنها تجسد المعنويات، وتساعد على تقريب المعنى وتوضيحه، وهي تمنح العمل الأدبي قيمة فوق قيمته، وتخلق اللغة خلقا جديدا، وتبعث في النص الحيوية والإثارة، وتفرض على المتلقي الانتباه واليقظة، وتضفي على العمل الأدبي المتعة الفنية.

إن الكاتب إذا أراد أن يترجم عن أفكاره ومعانيه وتجاربه ، وما يجول في خاطره – عليه أن يلجأ إلى الصورة ، فهي وسيلته للتعبير عن أفكاره ، وتجسيد مشاعره وأحاسيسه، وكلما كان صادقا في تجربته كان أقرب للإقناع . وفي الصفحات التالية سأعرض للوسائل التي أعانت الكتاب في تشكيل صورهم ، وأنماط هذه الصور.

---

(١٧٤) أصول النقد الأدبي : ص ٢٢١ .

(١٧٥) من صحائف النقد الأدبي: د. عبد الوارث عبد المنعم الحداد ص ٢٨٣ ، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٠هـ– ١٩٨٩م.

وسائل التشكيل، وأنماط التصوير

استعان الكتاب بالوسائل المتنوعة، وأنماط التصوير المختلفة التي أعانتهم في نقل تجربتهم ، وما يختلج في صدورهم من مشاعر وأحاسيس، والبوح بما في نفوسهم من أفكار ومعان، وتكشف عن مدى تعلقهم وحنينهم إلى زيارة الرسول – صلى الله عليه وسلم– ، وشوقهم إلى أداء فريضة الحج ، ومعاينة البقاع المقدسة ، ومناجاة ربهم عند بيته المحرم ، ومقام نبيه المكرم.

وأحب أن أشير إلى أن التنوع بين الصور– هنا– لا يعني المغايرة الواضحة، أو الاختلاف البيّن بين الصور ، فكثيرا ما تتداخل الصور وتتشابه، لكني آثرت هذا التقسيم للبيان، وللتوضيح، والتقريب.

أولا– التصوير البياني

لجأ الكتاب إلى التصوير البياني فاستعانوا بالتشبيه، والاستعارة، والتشخيص، وقد احتل التصوير البياني مكان واضحا في تصوير الكتاب ، فقد اعتمدوا عليه في تشكيل صورهم وإبرازها ، وبيان أفكارهم وعرض معانيهم، والكشف عن تجربتهم.

أ– التشبيه

وهو من الصور البيانية التي تزيد المعنى وضوحا(١٧٦)، وتقرب الصورة ، وتعين القارئ على فهم المعنى ، ويساعد على ربط الصورة بمشاعره وأحاسيسه إزاء المشهد أو الحدث الذي يصوره الكاتب.

إن "وظيفة التشبيه هي التصوير والتوضيح بالانتقال من شيء إلى شيء يشبهه ويشاكله ، يعبر به الشاعر أو الكاتب عن معنى في نفسه ، وكلما كان أبعد وأغرب

---

(١٧٦) ينظر في ذلك على سبيل المثال– كتاب الصناعتين ص ٢٤٣ ، وفن التشبيه : على الجندي ٢٢٥/١ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، الثانية ١٣٨٦هـ– ١٩٦٦م.

كان أروع وأجمل"[١٧٧]. وقد استعان به الكتاب في توضيح أفكارهم، والكشف عن معانيهم، وتقريب الصورة إلي المتلقي بأوجز لفظ، وأقصر عبارة.

ومن نماذج التشبيه قول أبي الحسن الجياني مخاطبا الرسول- صلى الله عليه وسلم-: "كتبته وأنا أتنفس الصعداء ، وأناجي بل أغبط أهل زيارتك السعداء ، وللزفرات تصعد وانحدار ، وللعبرات تردد في الجفن وانهمار ، طورا تسيل كالغمامة الثجاجة ، وتارة كأني أنظر من وراء زجاجة" [١٧٨].

فالكاتب سطر رسالته للرسول الكريم وقد سيطر عليه الحنين، والشوق إلى زيارته يلتهب في أحشائه وبين جوانحه ، وهو يغبط من يسر الله لهم الزيارة ، ويبكي حزنا وألما على عدم استطاعته زيارة حبيبه - صلى الله عليه وسلم- والدموع تزرف دمعا مدرارا حزنا وألما على عدم مساعفة الدهر له ، وكونه في ركب الراحلين للزيارة.

وقد استعان الكاتب بالتشبيه في بث أشواقه وحنينه ، وتصوير ما تجيش به نفسه، فشبه سيل العبرات بسيلان الغمامة الثجاجة في كثرتها، وغزارتها، وشدتها في الوقت نفسه، تعبيرا عن ألمه الشديد، وحزنه الواضح عن عدم استطاعته الزيارة وأداء الفريضة ، ومشاهدة البقاع الكريمة.

كما نلاحظ في هذا التشبيه الحركة الشديدة المتتابعة في قوله: (تسيل ، تتردد ، تصعد ، انحدار) ، هذه الحركة تثير القارئ وتشد انتباهه ، وتؤكد المعنى وتقويه، كما زادت التشبيه قيمة فوق قيمته ، وأضفت على الصورة الحيوية ، وبثت فيها الحياة .

---

(١٧٧) في النقد الأدبي : د شوقي ضيف ص ١٧١ ، دار المعارف ، القاهرة ، التاسعة ٢٠٠٤م.

(١٧٨) الذيل والتكملة : ٥/ ٢٩٠ .

ب- الاستعارة

وهي وسيلة أخرى من وسائل تشكيل الصورة، تخرج فيها الألفاظ عن دلالاتها المعجمية أو الوضعية إلى دلالات إيحائية جديدة، تكسب النص قوة وفعالية.

والاستعارة أداة فنية تبرز أغراض الفكرة المطلوبة ، وتكشف عن الجانب الفني الذي يريد أن يتحدث عنه الكاتب ويوصله إلى المتلقي ، وهي تتسم بقدرتها على تصوير الأحاسيس وما تنطوي عليه نفس المبدع من مشاعر .

ومن نماذج الاستعارة قول القاضي عياض يشكو عدم استطاعته أداء فريضة الحج: "فهو طليح ذنوب ومآثم، وأسير تباعات وخل آثم، أثقلت ظهره مع العاصين خطاياه وآثامه، وانقطعت في التمني مع العادين لياليه وأيامه، وقصرت به عن جد المخلصين أوزاره وأجرامه، فلا رجاء له إلا في عفو الله واستشفاعك، ولا خلاص له إلا بالتعلق بحقوك، يوم يكون آدم ومن ولد تحت لوائك ومن أتباعك"(١٧٩).

يتخذ الكاتب من ثقل الذنوب وكثرة الزلات وسيلة يعتذر بها للرسول – صلى الله عليه وسلم- عن تقصيره في زيارته ، وهذا دليل على أنه مغلوب على أمره، لذا راح يطلب شفاعته عسى الله أن يعفو عن زلاته، ويمحو خطاياه.

وقد استعان الكاتب في تصويره بالاستعارة المكنية، فأضفى على الذنوب والخطايا الصفات الإنسانية ، فجعل الذنوب تقتل، وتضني، وتأسر، والخطايا والآثام تثقل ظهره، وتحول بينه وبين الزيارة ، والأوزار تمنعه اللحاق بالمخلصين في جدهم وإخلاصهم ، هذا كله على سبيل الاستعارة المكنية.

هذه الاستعارة قد أكدت المعنى ، ورسخت الفكرة وأضفت على تصوير الكاتب الثراء الفني ، وأكدت عمق حبه وتعلقه بالنبي – صلى الله عليه وسلم- ، وتمني زيارته، لكن منعته الذنوب ، وأثقلته الخطايا.

---

(١٧٩) أزهار الرياض: ١٧/٤.

ج- الكناية

كما استعان الكتاب بالكناية في تصويرهم ، وهي لون بديع من ألوان الخيال ، ووسيلة من وسائله الخصبة ، لا تقل عن الاستعارة في الأثر النفسي ، كما أن لها قدرة واضحة على التصوير، لأنها تبرز المعقول في صورة المحسوس، فتزيد المعنى وضوحاً وبياناً وتأثيراً في النفس.

وغنى عن البيان أن الرمز للمعنى أشد وقعاً وتأثيراً في النفس عن التصريح، فهذه الصورة تجعل المتلقي مشاركاً للكاتب في استجلاء المعنى والكشف عنه، وسبر أغواره بدلاً من أن يتلقاه جاهزاً، ومن هنا كان للكناية مثل هذا الدور المهم.

وكان لجوء الكتاب إلي التصوير من طريق الكناية ملحوظاً ، ومن نماذجها قول لسان الدين بن الخطيب : "وأنى لما عاقتني عن زيارتك العوائق وأن كان شغلي عنك بك، وعدتني الأعداء فيك عن وصل سببي بسببك، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه، وعدو تتكاثف أفواجه، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه، في طائفة من المؤمنين بك وطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، ورفعوا إلى مصارختك رءوسهم، واستعذبوا في مرضاه الله تعالى ومرضاتك بوسهم، يطيرون من هيعة إلى أخرى، ويلتفتون والمخاوف عن يمنى ويسرى ، ويقارعون – يعني المجاهدين- وهم الفئة القليلة جموعا كجموع قيصر وكسرى، لا يبلغون من عدو هو الذر عند انتشاره عشر معشاره، قد باعوا من الله – تعالى- الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله -تعالى- هي العليا ، فيا له من سرب مروع، وصريخ إلا منك ممنوع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصبية حمر الحواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل"(١٨٠).

يعتذر الكاتب – على لسان الخليفة- بانشغاله بمجابهة الأعداء ومحاربتهم ، وهو أيضا- يكشف عما تنطوي عليه نفسه، وما يحمله من هم بين جنبيه فيستغيث بالنبي – صلى الله عليه وسلم- ويطلب من المدد الروحي والمعنوي عسى الله أن يعينهم وينصرهم على عدوهم، فيبين في رسالته كثرة الأعداء وإحاطتهم بالمسلمين من كل جانب، ويشكو له ما يلاقيه المسلمون في تلك الديار القصية على يد أهل

---

(١٨٠) أزهار الرياض : ٤٢/٤ .

الكفر الباغية من القتل والتشريد والبغي والعدوان، ثم هو يظهر ضراعتهم وتوسلهم بالنبي الكريم لينقذهم من ويلات هذه المحنة، ويرد عنهم بأس أهل الصليب- دمرهم الله.

والكناية هنا في قوله : "وعدو تتكاثف أفواجه، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه"، وقوله: "جموعا كجموع قيصر وكسرى، لا يبلغون من عدو هو الذر عند انتشاره عشر معشاره"، وهي ترمز إلى كثرة الأعداء المتربصين بالمسلمين في الأندلس، وتكالبهم على ديار المسلمين وأهل الإيمان .

وقوله: "وصبية حمر الحواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل" كناية عن ضعف الفئة المؤمنة وقلة عددهم ، والكاتب هنا يستغيث بالرسول الكريم ويطلب منه العون الروحي والمعنوي، ويتوسل به عسى الله أن ينصرهم على أعدائهم.

هذه الكناية تشف عن المعنى الذي يريده الكاتب بوضوح، وقد استقصته من جميع زواياه، ورسخت الفكرة في ذهن المتلقي، وأضفت على الصورة الوضوح . كما تكشف هذه الكناية عن شعور الكاتب، وما يحمله من أسى وحزن لما اعترى المسلمين في الأندلس من ضعف وهوان ، وتكالب الأعداء عليهم .

إن الكتاب في كناياتهم لا يلجئون في التعبير عن المعني الذي يريدونه صراحة ، وإنما يلجئون إلي ملازمه ورديفه بغية تفخيم المعني، وتأكيده، والمبالغة فيه، وتحقيقه في نفس المتلقي.

ولعل في التمثيل بالنماذج السابقة – إذ يتعذر الإحاطة والاستطراد- ما يغني في الدلالة على استخدام الكتاب للتصوير البياني والرامز ، في تصوير مشاعرهم، والتعبير عن خواطرهم ، والكشف عما يجيش في صدورهم .

د- التشخيص

التشخيص ظاهرة فنية لها دورها المؤثر في عرض الصورة عرضاً يملؤها حياة وحيوية، حيث تصير المعاني المجردة أشخاصاً ماثلة للعيان، فنراها تتحرك، وتظهر، وتختفي، وتذهب، وتجيء، وعناصر الطبيعة الصامتة تنطق ، وتحس ، وتفكر ، وتغدو، وتروح ، .... ! .

وقد اعتمد عليه الكتاب في تصويرهم لما له من أثر واضح في إبراز المعنى والفكرة، فهو "يبعث في الفكرة حركة نابضة، وتسري في الخاطرة الألوان الشاخصة،

والأشكال الإنسانية، وتلتهب المواد في الطبيعة بالعواطف البشرية، وتفيض مظاهر الحياة بالوجدان المتدفق، والانفعال القوي، ويصير غير الأحياء من الناس أناسا يتعاطفون ويتجاوبون، ويعشقون ويحبون، وبذاك تتحد مظاهر الحياة في طيات سر الوجود"(١٨١).

ومن نماذج التشخيص قول ابن الجد مخاطبا من صدر من بيت الله الحرام: "فما صدرتَ عن تلك المعالم المكرمة، والشعائر المعظمة، إلا وهي راضية عن عجّكَ وثجّكَ، شاهدة لك بكمال حجك، مشفقة من فراقك وبعدك، متعلقة لو أمكنها ببردك، وقبل أو بعد ما تأنستْ بك يثرب، ورفع لك في جنابها مضرب، فشافهت منازل التنزيل، وطالعت معاهد الرسول"(١٨٢).

بنى الكاتب صورته على التشخيص ، فوسم معالم مكة والمدينة ببعض سمات الإنسان ، فجعلها ترضى، وتشهد، وتشفق من فراقه ، وتتعلق به، هذا كله ليؤكد على حسن حجته، وأنه حرص على أدائها على الوجه المطلوب الذي يرضِي الله ورسوله، وهو في الوقت نفسه يرجو أن يتقبل الله منه.

هذا التشخيص أضفى على تصوير الكاتب الحركة والحيوية، وبث فيه الحياة، وقد أضفى على المعنى وضوحا، وعلى الفكرة رسوخا، فجاءت الصورة واضحة جلية، مقنعة للمتلقي ، تنطق بما يريد الكاتب.

فالكاتب – هنا– جعل من هذه الجمادات أشخاصاً تتفاعل وتشارك ، ومن ثمّ نجح التشخيص في نقل تجربته، ومنح الصورة القدرة على الحركة حتى تبرز شاخصة حية ناطقة تترقبها العين ، ويمثلها الخيال ، ويهتف صداها في النفس فتحدث التأثير المقصود .

---

(١٨١)البناء الفني للصورة الأدبية للشعر : د. علي علي صبح ، ص ١٨٧ ، المكتبة الأزهرية القاهرة ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م.

(١٨٢) الذخيرة : ٢٨٨/١/٢ .

هـ – التجسيـد

كما كان التجسيد من الوسائل التي اعتمدها الكتاب في تصويرهم، فهو وسـيلة مهمة من وسائل التصوير ، والتجسيد هو التعبير عن المعاني المجردة فـي قالـب محسوس، بحيث تبدو في هيئة مادية مدركة بإحدى الحواس.

وهو يلعب دوراً بارزاً في "توضيح المعنى وإبانته، فضلاً عـن كونـه عنـصراً جذاباً من عناصر تزيين الصورة وتجميلها، ودافع الأديب إلى التجسيد هـو الحـافز نفسه إلى التشخيص ، وهو قوة الوجدان لدى كل أديب"(١٨٣).

من نماذج التجسيد قول ابن أبي الخصال : "فلم أملك يا رسـول الله إلا رقعـةً تشكو بث التبريح، وتحية خفيفة المحمل، طيبة الريح، تتأرج يا رسول الله بأرجائك، وتتدرّجُ إلى قبولك ورجائك"(١٨٤).

الكاتب يعتذر للرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– عـن عـدم اسـتطاعته زيارته، وهو يقدم له أسباب الاعتذار ويعترف لجنابه بتقصيره ، وهـو لا يملـك إلا رسالة يشكو فيها ما تحمله نفسه من أشواق، وحنين إليه ، وما يعانيه من تبـاريح هذا الشوق ، وتحية كريمة تتمنى القبول والرضا منه – صلى الله عليه وسلم.

وقد جسد الكاتب التحية" في قوله : "وتحية خفيفة المحمل، طيبة الريح" ، وهي شيء معنوي، فجعلها شيئا ماديا، يثقل ويخف ، بل جعل لها ريحا طيبة، كأنها زهرة جميلة لها عطر فواح.

وفي تقديري أن العلاقة بين "التحية" التي هي من مدركات حاسـة الـسمع أو البصر، وبين "الرائحة الطيبة" التي هي من مدركات حاسة الـشم ، أن تـأثير هـذه التحية في النفس يشبه تأثير الريح الطيبة فيها وهو معنى جميل.

إنني أجد الصورة – بهذا التجسيد– ثرية ، تتحرك ، وتعج بالحيـاة ، وينبعـث من خلالها شعور الكاتب الصادق تجاه النبي – صلى الله عليه وسلم– . وهي صورة

---

(١٨٣) الصورة الفنية في شوقيات حافظ : د.عبد اللطيف محمـد الحديـدي ص ١٠٨، دار المعرفة بطلخا ، الأولى ١٩٩٧م.

(١٨٤) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٦٧.

جميلة تخاطب الحس ، وتلهب العاطفة ، وتعمق الفكرة تجاه متلقيها ، وتشف عن براعة الكاتب ، ودقته في الوصف والتصوير.

ومن نماذج الصورة التجسيدية – أيضا– قول الجياني : "وهل أعفر وجناتي في تلك المشاهد الكريمة والآثار؟! قسماً يا ذا الخلق العظيم بمقامك الأعظم، إن حبك قد تخلل وسرى في الأعظم، فهو روح النفس وغذاؤها، ويوح الأنس يسطع ضياؤها، بلبانه الطيب فطنت، وبرمامه المستصحب فطمت"(١٨٥).

فالكاتب يلجأ إلى أسلوب القسم ليؤكد حبه وتعلقه بالرسول الكريم ، وقد جسد الكاتب (الحب) وهو شيء معنوي، فجعل حبه للنبي –صلى الله عليه وسلم– كالدم يسير في أحشائه ، فهو الحياة بالنسبة له ، وهو غذاء روحه ، وبدون هذا الحب يفنى ويموت ، كما جسد (الحب) وجعله كالشمس في ضيائها ، فهي تمنح الكون الحياة والنور والإشراق.

هذه التجسيد منح الصورة قدرا واضحا من التأثير والحركة، وله أثره البيّن في نقل التجربة ومنحها حيويتها وثرائها الفني ، وهو يؤكد حب الكاتب الواضح للنبي –صلى الله عليه وسلم – وتعلقه به ، ويكشف عن الرغبة الشديدة الملحة في زيارته ومشاهدة البقاع الكريمة .

مم سبق يتبين لنا أن "التجسيد للمعاني أدعى لتأكيدها ورسوخها في النفس ؛ لما هو معلوم من ائتناس النفس بالمحسوس ، ووثوقها به أكثر من المعنوي المجرد"(١٨٦).

ثانيا– التصوير التقريري (الواقعي)

يعتمد الكاتب في هذه الصورة على الكلمة وما توحي به من أبعاد وظلال، دون التوسل إلى التشبيه أو الاستعارة أو غيرهما من عناصر التصوير البياني، فيجعل الكاتب اللفظ وعاءً للصورة وجسمًا لها دون الحاجة إلى الألوان البيانية، وفي ذلك دلالة على براعة الكاتب، وحسه بوقع الكلمات وإيحاءاتها.

---

(١٨٥) الذيل والتكملة : ٢٩٢/٥ .

(١٨٦) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ، د . شفيع السيد ص ١٣٣، دار الصفا للطباعة بالقاهرة ، الثانية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

والصورة التقريرية هي "الصور التي تتقرَّر هيئتها لدى المتلقي بوسَاطةِ مدلول كلمات التعابير التي نهضت برسمها من غير اللجوء إلى أساليب البيان" (١٨٧).

ومن نماذج هذه الصورة قول ابن أبي الخصال مخاطبا النبي – صلى الله عليه وسلم– : "كتبته يا واضعَ الإصر والأغلال، ورافع رايات الهدى على الضلال.... عن دم يسفح، ونَفَس يلفح، وصدر بأشواقه ملآن يطفح، وعَرف عليك من الصلاة ينفح، وأسف إليك يتلهب، وزفرة بأحناءِ الضلوع تجئ وتذهب، وحَشاشة بعوائق البعد عنك تَنهب. وكيف لا أقضي حزنا، ولا أرسل دموع الوجد والتلهف مُزنا، أم كيف ألذ الحياة، وأؤمل نجاة، ولم أعبر إلى زيارتك لجة ولا مَوماة، ولا أخطرت في قصدك نفسا أنت منقذها ومنجيها، ولا مَثُلْت بمعاهدك المُشَهرة، ومشاهدك المُطهرة أحييها، ولا نزلت عن الكُور كرامة للبقعة المقدسة التي ثوبت فيها"(١٨٨).

الصورة التي يود الكاتب التعبير عنها، وينقلها إلى المتلقي هي صورته وهو يتقلب بين نيران الشوق الملتهبة بداخله شوقا إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– ، وتذكي هيامه بحبه وتقض مضجعه، ويتمنى في لهفة زيارة المصطفى الكريم وأداء الفريضة لكنه لا يستطيع ، لذا فهو يرسل الدموع مدرارا حزنا وأسفا على عدم استطاعته الزيارة ، فلا لذة للحياة ولا متعة فيها بدون رؤية رسول الله ، والرحاب الطاهرة في مكة والمدينة.

لقد امتلأ قلبه بالأشواق حتى لم يعد لها مكانا فيه ، والكاتب لا يطفئ غلته إلا زيارة الرسول– صلى الله عليه وسلم – ولا يروي ظمأ اشتياقه إلا القرب منه ، ولا يسكن لوعته إلا رؤية البقاع الشريفة والتمتع بها.

ثم يشرح لنا حاله مع هذا الشوق الذي كاد أن يقتله، فقد كتب رسالته إلى المصطفى الكريم عن "دم يسفح، ونَفَس يلفح، وصدر بأشواقه ملآن يطفح، وعَرف

---

(١٨٧) بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق : د. كامل حسن البصير، ص ٢٦٨ ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(١٨٨) رسائل ابن أبي الخصال ص ٣٦٥.

ينفح، وأسف يتلهب، وزفرة بأحناءِ الضلوع تجئ وتذهب، وحَشاشة بعوائــق البعــد عنك تَنهب"، وهذا يدل على تمكن الشوق منه ، وسيطرته عليه.

وإذا كانت للألفاظ إيحاءات ودلالات وظلال بما تحمله من تأثير ، وبما تملكه من طاقة تعبيرية ورحابة معنوية غنية الدلالة ، وظلال إيحائية مرشدة إلى ما في نفــس الكاتب من مشاعر وأحاسيس وخواطر – فالأفعال : (يسفح ، يلفح ، يطفح ، يــنفح) أفعال مضارعة تدل على الحدوث والاستمرار، فالكاتب يكاد دمه يسفح حزنــا علــى عدم تمكنه من الزيارة ، وقلبه يكاد أن يطفح بالأشواق ، وهي مبالغة في ســيطرتها عليه.

وكلمة (ملآن) على وزن (فعلان) تدل على الامتــداد وبلــوغ الأمــر ذروتــه وغايته، والكلمات: (الضلوع ، زفرة ، الحشاشة ، الدموع ، الوجد، التلهــف) كلهــا تنقل لنا حال هذا المتيم الذي غلبته الأشواق ، وأثرها المدوي بين جوانحه وضلوعه ، فقد تمكن منه الشوق وأثر فيه تأثيرا ماديا ومعنويا وروحيا ، وأحاطت بــه آلامــه وآثاره بكل كيانه الداخلي والخارجي.

والكلمات: (أقضي، أرسل، ألذ، أؤمل، أعبر، أخطرت ، مثلت ، نزلت)، تــوحي بأن حياة الكاتب وإحساسه بمتعة الحياة ولذتها، بل شعوره بأنه حي يعيش لا يتحقق إلا إذا عبَر لزيارة حبيبه – صلى الله عليه وسلم.

والاستفهام بــ (كيف)، والهمزة في (أم) يدل على أسف الكاتب وتحسره علــى عدم استطاعته الزيارة ، واستحالة الحياة بدون رؤية رسول الله– صــلى الله عليــه وسلم.

وقد برزت في هذه الصورة العناصر التي زادتها قيمة ، وأضفت عليها حيويــة وبثت فيها الحياة ، فنجد (الحركة) الواضــحة فــي: (تجــيء ، تــذهب)، وعنــصر (الصوت) والحركة أيضا الواضح في : (يسفح ، يلفح) ، وعنصر (الشم) في (ينفح).

إن الكلمة – هنا– إلى جانب بعض وسائل البيان – هي التي رســمت صــورة هذا الشوق الكامن في نفس الكاتب، وأرشدتنا إلى التهابه في نفسه، وأوحت بقوتــه وشدته وضراوته وقدرته على التأثير في الكاتب والنيل منه.

إنها صورة رسمت بالكلمات، رصد فيها الشاعر انفعاله بالتجربة دون اعتماد كلي على الألوان البلاغية؛ فالكاتب – هنا – قد اعتمد على كلمات وألفاظ موحية معبرة تصور ما بداخله ، وما ينتابه من شعور تجاه الرسول – صلى الله عليه وسلم.

وقد وفق الكاتب إلى حد كبير في استغلال الطاقة الإبداعية المصورة للغة ، واستطاع أن ينقل لنا ما يجيش في صدره بألفاظ حقيقية ، معتمدا علي أصوات هذه الألفاظ، ودلالاتها ، وتآلفها وما توحي به من ظلال .

إننا نكاد نرى صورة الكاتب وهو يناجي الرسول– صلى الله عليه وسلم– معبرا عن شوقه إليه، واعتذاره له في الوقت نفسه عن عدم استطاعته والحسرة التي تملأ قلبه، فهي عواطف ممزوجة بالأشواق والقلق والحسرة والألم والحزن ، والهم أوالكرب الذي انتاب الكاتب لعدم استطاعته الذهاب إلى زيارة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأداء فريضة الحج ، ومشاهدة المعاهد المطهرة في بلاد الحجاز.

هذه الصورة تؤكد اعتماد الكتاب الصورة التقريرية في تصويرهم، إذ عبروا بالكلمات ودلالاتها عما يريدون تصويره ، وأدركوا إيحاءات الكلمة وما تدل عليه وتشي به، واستطاعوا أن يوظفوها في تصويرهم والتعبير عن أفكارهم وترجمة معانيهم، وفي هذا ما يدل على فهمهم معنى الكلمة ، ووقوفهم على ما توحي به من دلالات وظلال ، ويؤكد مقدرتهم الأدبية.

ثالثا– الصورة الحركية

الحركة عنصر مهم في التصوير ، وهي من العناصر التي لها تأثيرها في نفس المتلقي، وأثرها الواضح في إثارة إحساسه وشعوره، وتفاعله مع الكاتب، وقد شاعت الصورة الحركية في تصوير الكتاب بما يضفي على تصويرهم الإثارة والحيوية، ويحقق له الوضوح والمتعة الفنية .

ومن نماذج الصورة التي بدت فيها الحركة واضحة قول ابن أبي الخصال : "لو أوتيتُ يا رسول الله سؤلي، لسبقت إليك كتابي ورسولي، لكنْ قل الوفر، واستقل السفر، وغادروني حرضا، ولسهام الوجد والأسى غرضا. أتبعتُهم نفَسا لا يؤوب،

وقلبا يستخفه القلق والوثوب، فأتشبث بهم تشبث الأسير بالطليق، وألحظُهم لحظ السقيم للمفيق"(١٨٩).

فنجد الكاتب يعتذر للرسول- صلى الله عليه وسلم- عن زيارته بقلة الوفْر، وهو يبدي أسفه الشديد، وحزنه الواضح في صورة حركية رائعة، تكاد تنطق بما يشعر به الكاتب، فقد تركه وفد الحجيج الذاهب إلى الزيارة حرضا يكاد أن يموت من الحزن الذي خيم عليه ، والهم الذي شمله، والألم الذي سببه له عدم كونه معهم.

والحركة واضحة في قوله: (أتبعتُهم نفَسا لا يؤوب) ، وهي حركة متتابعة لا تنقطع معها صوت خافت ، وفي قوله : (وقلبا يستخفه القلق والوثوب) : صورة حركية رائعة تؤكد أن قلب الكاتب قلق لا يهدأ ، متعلق بهذا الوفد، لا يستقر له حال، ولا يهدأ له بال حتى يبلغ مبلغهم ، ويكون من جملتهم، كما توحي بتعلق قلب الكاتب بوفد الحجيج الذين يسر الله لهم زيارة الرسول الكريم.

وفي قوله: (أتشبث بهم) دليل التعلق الواضح بهم ، وفي قوله: (الأسير/الطليق) (السقيم/ المفيق) طباق يوحي بالألم الذي يشعر به الكاتب، فهو كالأسير المقيد الذي لا يستطيع الحركة ، كما أن كلمة (ألحظهم) تدل على تتابع النظر واستمراره ودوامه، وهي حركة دائمة مستمرة لا تنقطع.

إن تصوير الكاتب لحالته النفسية جد واضح من خلال هذه الصورة الجامعة، التي ماجت بالحركة، مما أضفى عليها الحياة، فجاءت تنبض بالحيوية، تشد انتباه المتلقي وتؤثر فيه، محققة للإقناع والإمتاع.

ومن النماذج التي كان للحركة فيها بروزا واضحا - أيضا- قول ابن الخطيب: "كتبه إليك يا رسول الله واليراع تقتضى الهيبة صفرة لونه، والمداد يكاد أن يحول سواد جونه، وورقة الكتاب يخفق فؤادها حرصا على حفظ اسمك الكريم وصونه، والدمع يقطر فتنقط به الحروف وتفصل الأسطر، وتوهم المثول بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه، ولا يخطر عن قلب بالبعد عنك قريح، وجفن بالبكاء جريح، وتأوه عن تبريح، كلما هب من أرضك نسيم ريح، وانكسار ليس له إلا جبرك،

---

(١٨٩) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٦٧ .

واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك، وإن يقض فقبرك، وكيف لا يسلم في مثلها الأســى، ويوحش الصباح والمسا، ويرجف جبل الصبر بعدما رسا، لولا لعل وعسى" (١٩٠).

يعبر الكاتب بهذه الصورة عن شوق سلطانه وحنينه – وشوقه هو أيضا– إلى الرسول– صلى الله عليه وسلم– ومشاهدة البقاع المقدسة، فالقلم قد اصــفر لونــه هيبة لأنه يكتب اسم رسول الله ، وورقة الكتاب يخفق فؤادها إجلالا وتعظيما للرسول الكريم ، وهي استعارة جميلة أضفت على تصوير الكاتب الحركة ، وبثت فيه الحياة.

ثم يذهب الكاتب في التعبير عما يعتريه هو وأثر ذلك في نفسه: فدمعــه يقطــر حزنا على عدم المثول بين يدي رسول الله ، وقلبه قريح لبعده عنه، وجفنه بالبكــاء جريح، ونفسه منكسرة لا يجبر كسرها إلا الوقوف بحرمه –صلى الله عليه وســلم–، وشعوره بالغربة قد سيطر عليه، لا يؤنسه إلا القرب من رسول الله –صلى الله عليه وسلم.

هذه الصورة تعبر عن شوق الكاتب وحنينه لزيارة المصطفى الكريم ، والمثول أمام قبره الشريف، وهي تكشف عن مشاعره الواضحة ،وأشواقه الملحة ، وحنينــه الآسر تجاه الرسول الكريم والديار المقدسة.

إن الكلمات (قريح ، جريح ، تألم ، تبريح ، انكسار، جبرك ، اغتراب، قربــك، الأسى، يوحش، يرجف) تدل على أثر الشوق في الكاتب وما تشعر به نفــسه نحــو النبي – صلى الله عليه وسلم.

والعبارات : (انكسار ليس له إلا جبرك)، (اغتراب لا يــؤنس فيــه إلا قربــك)، (وإن يقض فقبرك) تدل على التعلق الواضح بالنبي الكريم ، وتوحي بأن الكاتــب لا يفتأ يفكر في زيارته، والوقوف بحرمه.

وقد توافرت لهذه الصورة العناصر التي تنميها وتجعلها حافلة بالحركة والظلال وتضفي عليها الوضوح، وتبث فيها الحياة ، فبدا عنصر(الحركة) واضحا في قولــه: (كتبته/ يخفق/ يقطر/ يرجف/ريح/ هب)، كما بدا عنصر(اللون) واضحا في الكلمات:

---

(١٩٠) أزهار الرياض : ٤/ ٥٠ ، ٥١.

(صفرة /لونه/ المداد / سواد/ جونه/ الصباح/ المسا)، كما توفر لها عنصر(الصوت) الذي يظهر في الكلمات: (يخفق/ يقطر/البكاء/ريح/ هب) و(الضوء) الذي يبدو في (صفرة/ الصباح) ، كما يظهر عنصر (الرائحة) في قوله (نسيم ريح).

كما أضفى الكاتب على الصورة (التشخيص) فاستعار لها بعض صفات الإنسان، وألبسها لباس الحياة : فورقة الكتاب يخفق فؤادها، وجبل الصبر يرجف.

إن تحقق هذه العناصر في الصورة مما ينميها ويزيدها وضوحا ، ويجعلها تعج بالحياة، وتحفل بالحركة ، وهو مما يرسخ الفكرة، ويبرز المعنى، ويعين القارئ على استيعاب الصورة.

هذا الصورة تدل على أن الكتاب اعتمدوا على الحركة في تصويرهم ، وأدركوا الدور الفعَّال الذي تلعبه في تشكيل الصورة ورسمها، وإبراز الفكرة وتوضيحها، والأثر النفسي الذي تحدثه في نفس المتلقي، مما كان له أكبر الأثر في إقناعه وإمتاعه.

رابعا- الصورة النامية أو الممتدة

كما اهتم الكتاب في نقل تجربتهم، والتعبير عن مشاعرهم بالصورة المتداخلة أو الممتدة أو النامية لتشارك الصورة البيانية بأنواعها، والتقريرية، والحركية في نقل أفكارهم، وبث مشاعرهم، وإشراك المتلقي فيما يشعرون به تجاه الرسول الكريم ، والديار المقدسة.

وتعتمد هذه الصورة على الاسترسال في الوصف، والإبانة والوضوح، واستقصاء صفات الموصوف، وهي تمنح الكاتب مساحة لأن يطيل نفسَه ويستقصي صفات الموصوف ، ويعبر عن تجربته من شتى جوانبها.

وأكثر ما ترد هذه الصورة في صدور الرسائل ، وشواهدها كثيرة ، وسأكتفي بنموذج واحد، وهو قول لسان الدين بن الخطيب : "إلى رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة، الصادق البرق، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب، وطبيب أدواء القلوب، والوسيلة إلى علام الغيوب، نبي الهدى الذي طهر قلبه، وغفر ذنبه، وختم به الرسالة ربه، وجرى في النفوس مجرى

الأنفاس حبه، الشفيع المشفع يوم العرض، المحمود في ملإ السماء والأرض، صاحب اللواء المنشور، يوم النشور، والمؤتمن على سر الكتاب المسطور، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور، المؤيد بكفاية الله وعصمته، الموفور حظه من عنايته ونعمته، الظل الخفاق على أمته، من لو حازت الشمس بعض كماله، ما عدمت إشراقا، أو كان للآباء رحمة قبله ذابت نفوسهم إشفاقا، فائدة الكون ومعناه، وسر الوجود الذي يبهر الوجود سناه، وصفى حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه، البشير الذي سبقت له البشرى، ورأى من آيات ربه الكبرى، ونزل فيه سبحان الذي أسرى، منْ الأنوار من عنصر نوره مستمدة، والآثار تخلق وآثاره مستجدة، من طوي بساط الوحي لفقده، وسد باب الرسالة والنبوة من بعده، وأوتي جوامع الكلم فوقفت البلغاء حسرى دون حده، الذي انتقل في الغرر الكريمة نوره، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره، وطفقت الملائكة تجيئه وفودها وتزوره، وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته، واخذ عهد الإيمان به على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته، المفزع الأمنع يوم الفزع الأكبر، والسند المعتمد عليه في أهوال المحشر، ذو المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس، وأقر بها الجن والإنس، من جماد يتكلم، وجذع لفراقه يتألم، وقمر له ينشق، وحجر يشهد أن ما جاء به هو الحق، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس، وماء من بين أصابعه يتبجس، وغمام باستسقائه يصوب ... المخصوص بمناقب الكمال، وكمال المناقب، المسمى بالحاشر العاقب، ذو المجد البعيد المرامي والمراقب، أكرم من رفعت إليه وسيلة المعترف المغترب، ونجحت لديه قربة البعيد المقترب، سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب" (١٩١).

فنجد الكاتب في هذه الصورة يحاول أن يستقصي صفات الرسول- صلى الله عليه وسلم - ويسردها للقارئ، وأن يطلق العنان لنفسه في الوصف، ويجمع ما استطاع من صفاته وخلاله وشمائله ، فهو يثني عليه ثناء حسنا ، ثم يعرج على ذكر فضائله وما فضله الله به عن غيره من الأنبياء، ثم يتحدث عن الحقيقة

---

(١٩١) أزهار الرياض : ٣٨ ، ٣٩.

المحمدية[١٩٢] ، ثم يذكر شفاعته يوم القيامة ، ثم يعرض لبعض معجزاته ، هذا كله في تتابع وتواؤم، إذ ينتقل من صورة إلى أخرى في تناسب وتلاؤم وكأنها صورة واحدة.

إن الكاتب – هنا – لا يقنع بالصور الجزئية في نقل مشاعره إلي المتلقين ، وإنما يعتمد علي الاسترسال في تتابع الصور الممتدة التي تعطي له فسحة لأن يطيل في بث مشاعره تجاه الرسول الكريم ، كما أتاحت له فرصة التفصيل والاستقصاء في الوصف، وتفصيل الموقف الذي يعالجه، فيظل الكاتب ينتقل من صورة إلي أخري بُغية إبراز شمائل الرسول الكريم وخصاله الكريمة، وإثبات حبه له وتعلقه به ، لتخرج في النهاية وكأنها صورة واحدة .

لقد استطاع الكتاب بما يمتلكون من قدرات أدبية وفنية تصوير مشاعرهم ، وبث ما يعتمل في نفوسهم تجاه الرسول– صلى الله عليه وسلم– والمعاهد الشريفة في أرض الحجاز بالوسائل المختلفة ، وأنماط التصوير المتنوعة ، فعبروا بالصورة البيانية واستطاعوا أن يوظفوها في تصويرهم، والتعبير عن أفكارهم، وترجمة معانيهم، كما اعتمدوا التصوير التقريري فاستعانوا بالألفاظ وما توحي به الكلمات من دلالات، وما تشعه من ظلال وإيحاءات، كما كانت الصورة الحركية من الصور التي كان لها دور بارز ومؤثر في الكشف عن مشاعرهم ، كما لجئوا إلى الصورة الممتدة أو النامية لاستقصاء الوصف من شتى جوانبه والاسترسال فيه، والتعبير عما يجش في صدورهم، والكشف عن تجربتهم ومعاناتهم من شتى زواياها.

---

(١٩٢) تعني أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو سيد الوجود، وأصل كل موجود، وهو أول الأولين، وخاتم النبيين ، المختص بالاسم الأعظم الذاتي الذي لا يكون إلا له دون جميع الأنبياء– عليهم السلام– فقد قبض الله– تعالى – قبضة من نوره هي الحقيقة المحمدية ، وظهرت بالصورة المكرمة وجعل منها ما كان وما يكون، فجعل منها أهل السعادة وأهل الشقاوة ، فكان رسولنا الكريم المرجع الأصلي للخلق، والأصل الذي ينتسب إليه الكون، وكلّ ما في هذا الكون من مظاهر بشرية وطبيعية مستمدّ من النور المحمدي. انظر: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي : د. رفيق العجم ص ٣٠٠ ، ٣٠١ ، مكتبة لبنان ، بيروت ط١/١٩٩٩م.

وقد أظهروا براعة واضحة في استعانتهم بهذه الصور بما يمنح المعنى الدقة والوضوح، والفكرة الثبات والرسوخ ، ويضفي على تصويرهم الشمول والاستقصاء، ويبعث فيها الحركة، والإثارة، والحيوية ، ويحقق لها الإقناع والإمتاع، ويؤكد مقدرتهم الفنية، ويشي ببراعتهم الأدبية.

الفصل الخامس : الخصائص والقيمة

اتسمت هذه الرسائل بسمات وخصائص ميزتها عن غيرها، وأضفت عليها قيمة فوق قيمتها، وذلك راجع لطبيعة الموضوع التي تعالجه، والفكرة التي تسعى لإبرازها، والتجربة الشعورية التي تستوعبها.

أولا- تنوع العاطفة

العاطفة هي الانفعال والإحساس بالموقف الذي يعالجه الأديب ، والحالة النفسية المسيطرة عليه ويفوح أريجها في كل تعبير، أو معنى، أو صورة ، تجاه الموضوع الذي يسعى للتعبير عنه.

وهي "عنصر مهم في الأدب ، بل هي أهم عنصر فيه ، وهي التي تطبع الأدب بطابعه الفني" (١٩٣). وأهم مقاييسها أن تكون صادقة غير مفتعلة ، والصدق هنا مقصود به الصدق الفني ، ويتحقق لها ذلك عندما "تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع ، حتى تكون عميقة تهب للأدب قيمةً خالدة"(١٩٤).

وقد تحقق لهذه الرسائل صدق العاطفة ، وقوتها وثباتها ، والدليل على صدق العاطفة وقوتها لدى هؤلاء الكتاب : إحساس المتلقي بمشاعر الحنين والشوق بين جنبات هذه الرسائل ، وشعوره بما يشعر به الكتاب من البهجة والإجلال للرسول الكريم والتعظيم لهذه البقاع المكرمة، وإشفاقهم ، وأسفهم عن عدم استطاعتهم الزيارة والوقوف بين هذه الرحاب المباركة ، "وقوة العاطفة إنما تتضح بمقدار انفعال

---

(١٩٣) أصول النقد الأدبي: ص ٣١ .

(١٩٤) السابق ص ١٩٠ .

المتلقي وتأثيرها في نفسه ، فإذا حرك النص عواطف القارئ وأثار مشاعره كان صادق العاطفة قوي الشعور ، فالأديب لكي يثير شعور القارئ أو السامع يجب أن يكون هو قوي الشعور في أدبه"[١٩٥].

وإذا كانت العواطف تتنوع وتختلف حسب حالة الأديب النفسية والمزاجية ، فإن تنوع العاطفة واضح بيِّن في هذه الرسائل. وتنوع العواطف معناه: قدرة المبدع – كاتبا أو شاعرا – على إثارة العواطف المختلفة في نفوسنا بدرجة قوية[١٩٦].

وللعاطفة في هذه الرسائل وجود بيّن ، وأثر بارز ، وحركة واضحة تسري في أفكارها ومعانيها ، بل في ألفاظها، حيث نجد حرارة الانفعال بالموقف وقوة الشعور، وعمق الإحساس بجلال الأماكن المقدسة ، وإدراك عظمة الرسول الكريم ومعاهد الجلال المكرمة.

لقد وجدت لدى هؤلاء الكتاب تنوعا في العاطفة ، سببه تنوع شعور الكتاب بما يشعرون به تجاه الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم ، وما يجيش بين جوانحهم شطر البقاع المقدسة .

أ- عاطفة الشوق

تحتل عاطفة الشوق مكانا بارزا بين العواطف التي تختلف وتتنوع وتتطلع إلى بيت الله الحرام وزيارة نبيه –عليه الصلاة والسلام- ، إذ نجد حنين الكتاب الواضح، وشوقهم الشديد إلى زيارة الرسول – صلى الله عليه وسلم- والوقوف أمام قبره، ومناجاته، وتلهف النفس على أداء فريضة الحج، ورغبتها في مشاهدة آيات الجلال ، والتمتع بأنوار الجمال في مكة والمدينة ، وسكب العبرات هناك أسفا وحزنا على التفريط في الذنوب، وشوقا إلى عفو الله –تعالى- وشفاعة رسوله –صلى الله عليه وسلم.

ومن نماذج هذه العاطفة قول ابن الجد :"ولما صدرتُ يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري وغشيني من نور

([١٩٥]) في النقد الأدبي : د. عبد العزيز عتيق ص ١١٢ ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢م. بتصرف.

([١٩٦]) انظر : أصول النقد الأدبي :ص ٢٠١ .

برهانك ما بهر لبي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جوانحي التهابا، وأوسع جوارحي اضطرابا، وأشعر أملي عودا إلى محلك المعظم وإيابا، وكيف لا أحن إلى قربك ، وأتهالك في حبك، وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صمت ولا صليت، ولا سعيت ولا طفت؟!"(١٩٧).

لقد سيطرت الأشواق على الكاتب ، والحنين يلتهب بين جوانحه شوقا إلى الرسول – صلى الله عليه و سلم– ، فهو يتمنى شفاء غليله بمشاهدة معاهد الجلال في مكة والمدينة ، وري ظمأ الفؤاد بالطواف حول بيت الله المحرم ، ومناجاة الرسول– صلى الله عليه وسلم– عند مقامه المكرم.

وقد فاضت عاطفة الشوق عند الكاتب بهذه التعابير: "لحقني الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، أودع جوانحي التهابا، أوسع جوارحي اضطرابا، كيف لا أحن إلى قربك؟، أتهالك في حبك، أعفر خدي في مقدس تربك". وهي تشف عن طغيان العاطفة، وعمق الشعور، وصدق الإحساس ، وقوة الانفعال بالموقف، وصدق التجربة.

ومن النماذج التي تبدو فيها هذه العاطفة واضحة قول ابن الجنان : "كتبته يا رسول الله وقد رحل المجدون، وأقمت، واستقام المستعدون، وما استقمت، وبيني وبين لثم ثراك النبوي، ولمح سناك المحمدي، مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه، بماء توبة، وستر وصم عيبه، بظهر غيبه، فكلما رمت المتاب رددت، وكلما يممت الباب صددت، وقد أمرنا الله تعالى بالمجيء إليك، والوفادة عليك، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تنئي وتبعد، والأيام لا تدني ولا تسعد، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المقيم المقعد، ولئن كنت ممن خلفته عيوبه، وأوبقته ذنوبه، ولم يرض للوفادة وهو مدنس، على ذلك المقام وهو المطهر المقدس، فعندي

---

(١٩٧) الذخيرة : ٢/١/ ٢٨٦ .

من صدق محبتك، وحب صحبتك، والاعتلاق بذمتك، ما يقدمني وإن كنت مبطئا، ويقربني وإن كنت مخطئا"(١٩٨).

إن عاطفة الحنين والشوق العارم إلى أداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– واضحة جلية من خلال هذه الكلمات التي استطاع الكاتب من خلالها أن يبث تباريح الشوق التي سيطرت عليه، ونيرانه الملتهبة في أحشائه.

وقد انعكست آثار تلك العاطفة على التعبير والتفكير والتصوير ، إذ نجد الألفاظ والتراكيب التي تؤكد هذه العاطفة وتشف عن شوق الكاتب العارم : "رحل المجدون وأقمت ، رمت ، يممت ، لثم ثراك النبوي ، بين جنبي أشواق ، صدق محبتك، حب صحبتك" . وهي تكشف عن شوق ملتهب في صدر الكاتب، لا يطفئه إلا الوقوف بحرم الرسول– صلى الله عليه وسلم– ، والطواف حول بيت الله الحرام.

ب– عاطفة الإجلال والتعظيم

إذ نجد شعور الكتاب بعظمة الرسول – صلى الله عليه وسلم– وإجلالهم له ، وما تحس به النفوس نحوه من عظمة وإجلال وتقدير، وشعورهم بروعة البقاع المقدسة والإحساس بجلالها وعظمتها ، إذ ينبعث الإجلال والإعجاب بالمصطفى الكريم، والأماكن الطاهرة في النفوس، فيعبر الكاتب عن هذه العظمة وهذا الإجلال.

ومن ذلك تعظيم الرسول – صلى الله عليه وسلم– وإجلاله والإكثار من ذكره والثناء عليه ، وقد أكثر الكتاب من هذا الجانب وأفاضوا في ذكره وسطروا أسمى آيات التعظيم والإجلال والتقدير– للرسول الكريم ، ومن نماذج ذلك قول القاضي عياض : "سيد المرسلين، وإمام المتقين، وشفيع المذنبين، وقائد الغر المحجلين، وأكرم الآخرين والأولين، ورسول رب العالمين، ووسيلتهم إليه أجمعين، النور الساطع، والشفيع المشفع الشافع، صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة والفضيلة والكوثر، ورافع لواء الحمد يوم المحشر، المرسل إلى الأسود

---

(١٩٨) نفح الطيب : ٤٢٥/٧.

والأحمر، الآتي بالآيات والنذر، المتحدي بالمعجزات جميع البشر، المبعوث بجوامع الكلم، الشاهد على جميع الأمم، منير الأفئدة بأنوار الحكم... الخ"(١٩٩).

هذه العبارات يتجلى من خلالها تقدير الكاتب لشخص الرسول الكريم وإجلاله له، وتعظيمه إياه ، وفي هذا ما يؤكد تعلقه الواضح به ، وتمني زيارته والوقوف بحرمه، والتوسل به، وطلب شفاعته .

وقول ابن الخطيب يصف جلال وعظمة البقاع المقدسة : "فيا لها من معاهد فاز من حياها، ومشاهد ما أعطر رياها، بلاد نيطت بها عليك التمائم، وأشرقت بنورك منها النجود والتهائم، ونزل في حجراتها عليك الملك، وانجلى بضياء فرقانك فيها الحلك، مدارس الآيات والسور، ومطالع المعجزات السافرة الغرر، حيث قضيت الفروض وحتمت، وافتتحت سورة الرحمن وختمت، وابتدئت الملة الحنيفية وتممت، ونسخت الآيات وأحكمت"(٢٠٠).

فنجد الكاتب يقف مع هذه المشاهد التي يتشوق إلى رؤيتها، ويمني نفسه بزيارتها، وقفة إجلال وتعظيم تعبيرا عن شوقه وحنينه، فيقف أمامها خاشعا متأملا إياها بعقله وقلبه وروحه، يتخيل مشاهدها الكريمة وقفة ظامئ لا يروي غلته إلا أداء الفريضة، ورؤية هذه البقاع العظيمة، الجليلة في نفسه وفي نفوس المسلمين جميعا، هذا كله في إحساس صادق، وعاطفة سامية، صادقة تعرف قدر هذه المعالم والمعاهد الكريمة، وتجلها وتعظمها، وتكشف عن نفس مؤمنة غاية ما ترجوه هو أداء الفريضة ، ومشاهدة تلك البقاع المقدسة، ومناجاة الله -تعالى- عندها ، وطلب عفوه.

ج- عاطفة الخوف والرجاء

إذ نجد الكتاب يخافون ذنوبهم، وما اقترفوه في حياتهم من هفوات وآثام قد تمنع القبول، ويخشون أن تكون هذه الذنوب حائلا بينهم وبين أداء الفريضة ، وهم

---

(١٩٩) أزهار الرياض : ١٤، ١٥ .

(٢٠٠) السابق : ٤/٤١ .

في الوقت نفسه يرجون من الله – تعالى– العفو والمغفرة ، وأن يتجاوز عن زلاتهم، ويقبل منهم.

ومن نماذج ذلك قول ابن أبي الخصال يناجي ربه ويدعوه أن يكرمه بقضاء فريضة الحج ، ويرجو العفو عن زلاته : "اللهم شرفني بقضاء الفريضة ، ومضاء في تلك الأرض الأريضة، اللهم لا تحرمني طيب طيبة ، وأنخ هذه الشيبة بباب بني شيبة، واغسلها هناك من ذنوبها وخطاياها، وعج إلى خاتم أنبيائك صدور مطاياها، وهب لي عزمة من أطاع، وبسطة من استطاع، وادفع عني الضرر والضرورة، ولا تُمتني حِلس البيت صرورة"(٢٠١).

فهو يناجي ربه ويدعوه أن يكرمه بقضاء فريضة الحج ، ويشرفه بالمكث بهذه الرحاب الطاهرة عند بيت الله المحرم، وقبر النبي المكرم ، ويرجو الله أن يغفر له زلاته، ويتجاوز عن سيئاته، وألا توافيه المنية حتى يتطهر من ذنوبه وهفواته وهو في ظلال الرحاب الطاهرة.

وقول أبي الحسن الجياني : "اللهم يا رب فأنجد عبدك المسيء وأعنه على أداء الفريضة، وأشف من لواعج شوقها لبيتك الكريم ونبيك العظيم نفسه المريضة، اللهم فطيب قلبه بانتشاق ريح طيبة، ولا تجعل أمله فيك ورجاءه في كرمك إلى إخفاق وخيبة. إليك إلهي رغبتي وبكائي، اللهم يا رب فبلغه من ذلك سؤله وأمنيته، قبل أن تقضي منيته، وشفع صالح قوله بعاجل عمله، قبل حلول أجله"(٢٠٢).

فالكاتب يسأل الله –سبحانه– ويرجوه أن ييسر له أداء فريضة الحج، وأن يسكن شوقه إلى البيت المحرم بمشاهدته والسعي حوله، وأن يهدأ من لوعته برؤية الرسول – صلى الله عليه وسلم– ، ويشفي غلته بالوقوف أمام قبره الشريف ولثم ترابه الطاهر، والإقامة في تلك الرحاب الطاهرة بين البيت وزمزم، والمقام المطهر ، وهو يخشى أن تعاجله المنية قبل تحقيق هذه الأمنية الغالية ، ويرجو الله أن يحقق له أمله قبل حلول منيته وفوات أجله .

---

(٢٠١) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٦٧.

(٢٠٢) الذيل والتكملة : ٢٩٢/٥.

د- عاطفة الإشفاق والتحسر

إذ نجد الكاتب يتحسر أسفا على قلة حيلته، وعدم استطاعته أداء فريضة الحج أو العمرة، والتمتع بمشاهدة هذه الرحاب الجليلة ، وتكحيل العين برؤية مثوى الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم.

ومن نماذجها قول ابن أبي الخصال: "فوا أسفا، ألا أخِب إلى ثراك مُقبلا، ولا أكِب على مثواك مُستقبلا، وألا أصافح من تلك العرصات مدارس الآيات، ومهبط الوحي والمناجات، حيث قضى فرض الصوم والصلوات، وحيث انتشر التنزيل، وسفَر بالوحي جبريل، وبرزت خبيئة الدهر، وأوثرت بليلة خير من ألف شهر، أسفا لا يمحو رسمه، ولا يعفو ندبه ووسمه، إلا الوقوف بحرم الله وحرمك، والتوسل هناك إلى كرمه بكرمك"(٢٠٣).

إن الكاتب يبكى أسفا وحزنا على عدم استطاعته الذهاب مع الركب الراحلين لحج بيت الله الحرام ،وزيارة نبيه –عليه الصلاة والسلام– ، ومصافحة هذه المشاهد الكريمة مهبط الوحي، وأرض الرسالة.

ثم هو يبين مقدار هذا الأسف والتحسر في أنه لا يمحو أثره، ولا يعوض عنه إلا الوقوف في رحاب بيت الله المحرم ، وعند مقام الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم، والتوسل به لربه، ومناجاته، عسى الله أن يعفو عن زلاته، ويتجاوز عن هفواته.

هـ- عاطفة الغبطة

ومن نماذجها قول ابن أبي الخصال من رسالة بعث بها مع الحجيج القاصدين بيت الله الحرام : "سعدوا بالمقدور، وبلغوا حاجة في الصدور ، ونالوا من تلك المشاهد المعظمة هواهم ، وقضوا من منى أقصى أوطارهم ومناهم ، وسالت الأباطح بأعناق مطاياهم ، وزاروا تربة الشفيع ، وحلوا بمناخه العبق الرفيع ، وصدروا عنه بالثواب المحتقب ، والفخر الباقي على الحِقب"(٢٠٤).

---

(٢٠٣) رسائل ابن أبي الخصال :ص ٣٦٦ .

(٢٠٤) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٩١. المحتقب : احتقب الشيء: ادخره.

فنرى الكاتب يغبط الحجيج على نعمة الله –تعالى– عليهم أن سهل لهم هذه الرحلة المباركة ، وأن يسر لهم سبل الوصول إلى تلك المشاهد الكريمة في مكة والمدينة ، وهو في الوقت نفسه يعبر عما تنطوي عليه نفسه من حنين وشوق إلى زيارة هذه الأماكن، ويتمنى أن يسعد برؤيتها، كما سعد هذا الوفد الراحل للزيارة.

ومن الملاحظ انعكاس أثر العاطفة على التعبير ، حيث نجد طائفة من الكلمات التي تكشف عن شعور الكاتب وعاطفته : سعدو ، بلغوا ، نالوا ، قضوا ، أوطارهم، مناهم ، زاروا، حلّوا، صدروا بالثواب.

إن عاطفة الكتاب في التعبير عن تجربتهم ومعاناتهم جاءت منوعة، وقد تجتمع أكثر من عاطفة لدى الكاتب الواحد، فعاطفة الشوق تجتمع مع عاطفة الإجلال والتعظيم ، وعاطفة الخوف والرجاء تجتمع مع عاطفة الإشفاق والتحسر، وهذه الأخيرة تتقابل مع عاطفة الغبطة.

وأرى في هذه الرسائل سموّ هذه العواطف وارتفاع غاياتها، فهي تهذب النفوس ، وتسمو بصاحبها نحو الكمال، وترقى بأحاسيسه ومشاعره، وتعمق في نفسه الحب والإخلاص، والإحساس بالبهجة والسرور، "وأي تجربة أقدر على إحياء العواطف، وتنمية المشاعر، وترقية الأحاسيس، من تجربة الرحلة إلى مشرق النور والهداية ، ومبعث القداسة والصفاء ، وموطن العظمة والذكريات" (٢٠٥) في مكة المكرمة، والمدينة المنورة.

ومع تنوع هذه العواطف واختلافها يمكن أن تؤول إلى عاطفة واحدة عامة تسيطر على الكتاب جميعا هي عاطفة الحب للرسول – صلى الله عليه وسلم– ، والتعلق به والحنين إليه، والشوق لمشاهدة البقاع الجليلة في مكة والمدينة.

إن تنوع عاطفة الكتاب وصدقها بات سمة بارزة ، وعلامة مميزة لهذه الرسائل، فقد شملها الإحساس الصادق، ولفها الصدق الواضح، وبرزت فيها العواطف المختلفة التي تكشف في النهاية عن شوق كامن في نفوس الكتاب، وحب صادق نحو الرسول الكريم ، والديار المقدسة.

ثانيا– الطول

---

(٢٠٥) الرحلة إلى الحجاز ص ٣٧٣ .

هذه الرسائل كتبت إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بث فيها الكتاب ما يلح عليهم من شوق بالغ لزيارته ، وأداء فريضة الحج ، وحنين لا ينقطع لمشاهدة البقاع المقدسة ، ورسائل تدور حول هذه المعاني من الطبعي أن تتسم بالطول والاستطراد.

إن الكاتب في هذه الرسائل يخاطب أعظم بشر على وجه الأرض ، وأفضل إنسان خلقه الله عز وجل ، رسول رب العالمين، ورحمة الله تعالى للعالمين ، وشفيع المذنبين بإذن ربه محمد – صلى الله عليه وسلم – لذا كان الكتاب يسترسلون في الحديث إليه تعبيرا عن مشاعرهم وبث أشواقهم إليه.

ومع هذا كله فطول الرسالة لا يعني أن الحشو غلب عليها ، إن الكتاب كانوا يتجنبون الحشو وهم يخاطبون النبي –صلى الله عليه وسلم .

وقد استدعى الطول في هذه الرسائل عدة أمور:

١- الثناء على النبي – صلى الله عليه وسلم- والتغني بشمائله وصفاته وذكر أوصافه ، ورصد معجزاته، والصلاة والسلام عليه ، وقد أطال الكتاب في هذا الجانب في مستهل رسائلهم، وفي أثنائها، بل في خاتمتها ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا(٢٠٦).

وفي تقديري أن الذي دعاهم إلى ذلك: أن ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم يستهوي القلوب المؤمنة ويشدها ويجذبها ، فقلب المؤمن يحن دوما إلى النبي – صلى الله عليه وسلم ، ويتلذذ بذكره والحديث عنه، والصلاة والسلام عليه ، ويعطر لسانه وجنانه بالحديث عن صفاته، وخصائصه، وشمائله، ومعجزاته.

٢ – بث تباريح الشوق والحنين وما تجيش به الأنفس نحو النبي –صلى الله عليه وسلم ، وأداء فريضة الحج ، ومشاهدة الرحاب المباركة في مكة والمدينة ، ومناجاة الله – تعالى- عند بيته المحرم ، ومقام نبيه المكرم .

---

(٢٠٦) انظر : ص ٣٢ من هذا البحث ، بل إن ابن الجنان سطر رسالة كاملة في شرف المصطفى – صلى الله عليه وسلم- والثناء عليه ، والتغني بشمائله ، انظر: الإحاطة : ٣٤٨/٢ ، نفح الطيب : ٤٢٢/٧ .

فقد كانت هذه الرسائل تعبيرا عما تشعر به النفوس المشتاقة لحبيبها –صلى الله عليه وسلم– ، استطاع الكتاب من خلالها أن يعبروا عن شوقهم الجارف وحنينهم الواضح لزيارة هذه البقاع ووطئ ترابها الطاهر، ولثم مقام المصطفى الشريف ، والوقوف بهذه المعاهد الشريفة لذرف الدمعات عند بيت رب الأرض والسماوات ، ففي هذه الساحات المباركة تغفر الزلات ، وتحط السيئات، وترفع الدرجات.

بين هذه الرحاب الطاهرة ينسى العبد الدنيا بما فيها من ملذات وشهوات، ويسجد بين يدي ربه –جلا وعلا – يعترف له بذنوبه وزلاته ويستغفره عسى الله أن يتوب عليه، ويكفر عنه ما اقترفت جوارحه من ذنوب وآثام.

٣ – التوسل بالنبي – صلى الله عليه وسلم– ، وطلب شفاعته ، فقد كان الكتاب يدركون أنه – صلى الله عليه وسلم– هو الشفيع المشفع ، وهو الوسيلة إلى ربهم ، فكانوا يستشفعون به ، ويلوذون بجنابه ، ويتوسلون به إلى ربهم طمعا في مغفرة ذنوبهم ، والعفو عن زلاتهم، لذا أكثروا من ذكره ، ومناجاته، والثناء عليه بما هو أهله.

٤ – اعتذار الكتاب عن عدم استطاعتهم الحج أو العمرة ، وزيارة الرسول – صلى الله عليه وسلم– ، والوصول إلى الأراضي الحجازية الطاهرة ، ففي هذه البلاد القصية – بلاد الأندلس– كانت نفوس الأندلسيين تشتاق إلى الحج وزيارة البقاع المقدسة ، وكانت رحلة الحج محفوفة بالمخاطر ، والوصول إلى ديار الحجاز أمنية عزيزة المنال ، ومن فاز بها فهو الفائز ، فكانت هذه الرسائل بمثابة وثيقة اعتذار رسمية – إن صح التعبير– عن عدم استطاعتهم الحج أو العمرة ، والوصول لهذه ألاماكن التي يتمنون أن يمتعوا أنفسهم بالتأمل فيها ، وأن يكحلوا عيونهم بمشاهدتها .

وأسباب الاعتذار التي قدمها هؤلاء الكتاب كثيرة ، منها : الحاجة، وعدم الاستطاعة، والمرض ، وبعد الشقة ، والانشغال بالجهاد ومجابهة الأعداء ، وغير ذلك.

وهي تعبر عن حال الأندلسيين جميعا – لا الكتاب وحدهم– فالكاتب هو صوت مجتمعه، يعبر عما يشعر به ويعرض مشكلته عله أن يجد لها الحل ، وهو فرد من المجتمع يشعر بما يشعر به أي فرد فيه .

٥ – حب الكتاب الصادق ، وحنينهم الأسر إلى للنبي –صلى الله عليه وسلم– يدفعهم إلى ذلك عاطفة إيمانية كامنة في نفوسهم ، تملأ قلوبهم بالإيمان ، وحب رسول الرحمن محمد – صلى الله عليه وسلم .

كذلك حرصهم الشديد على تنفيذ أمر الله – تعالى– في قوله: "وأتموا الحج والعمرة لله" ، فكانوا حريصين كل الحرص على أداء هذه الفريضة المباركة ، يحدوهم في ذلك إيمانهم العميق، وحبهم الصادق، وعاطفتهم الدينية السامية.

٦– الدعاء ؛ وهو كثير في هذه الرسائل، فقد كان الكتاب يتحينون الفرصة وهم في مقام الحديث إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فيسألون الله عز وجل أن يحقق لهم أمنيتهم وهي زيارة الرسول الكريم ، والوقوف عند مقامه الشريف في الدنيا، والتوسل به وطلب شفاعته في الآخرة ، كذلك يسالون ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم ، ويمحو سيئاتهم ، وأن يدخلهم الجنة برحمته.

ثالثا – الترابط والتواؤم

إن قارئ هذه الرسائل يجد تواؤما وتناسبا بين أفكارها ومعانيها، وترابطا واضحا بين أجزائها، إذ يلفها رابط واحد يهيمن عليها من أولها إلى آخرها هو الرابط الإيماني أو الديني، وهذا الرابط الإيماني هو الذي دفع بالكتاب إلى كتابة هذه الرسائل، يعضده ويذكيه شوق ملتهب في أعماقهم، وحنين يشتد ويثور في قلوبهم ، وجوانح ملتاعة، ونفس مشتاقة لزيارة الحبيب– عليه الصلاة والسلام– ، وأداء فريضة الحج ، والوقوف بحرم الله الكريم.

إنني أجد تعبير الكتاب عن شوقهم وحنينهم إلى نبيهم –عليه الصلاة والسلام– يتبعه تعبير عن اشتياقهم إلى أداء الفريضة ، ورؤية البقاع المقدسة ، وذكر الرسول الكريم بأجل الصفات، وأسمى الآيات، وجميل الشمائل ، يتبع ذلك اعتذار بسبب عدم الاستطاعة في حديث عن ألم النفس، وحرقة الفؤاد، بسبب بعد الديار ، وقلة الحيلة ، ثم توسل بالرسول الكريم إلى ربهم لمغفرة ذنوبهم ، والعفو عن زلاتهم، وتيسير

الزيارة ، ثم مناجاة الله تعالى- وطلب العون منه أن يكرمهم بأداء الفريضة قبل فوات العمر، وحلول الأجل .

فنجد أن الأفكار والمعاني والجو العام في الرسالة متماسك مترابط يشمله جو إيماني، ويلفه تدين عميق، ويذكيه شوق ملتهب كان سببا في كتابة هذه الرسائل، وإرسالها إلى المقام النبوي الشريف مع وفد الحجيج الذين يسر الله لهم أداء الفريضة.

كذلك اتسمت هذه الرسائل بالتواؤم العام والتآلف الشامل مع الجو النفسي الذي يحياه الكتاب وهم يسجلون رسائلهم للرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- ويخاطبونه ، ويعبرون فيها عن أشواقهم وحنينهم إليه بين هذه الرحاب المباركة في مكة والمدينة عند بيت الله الحرام، ومقام سيد الأنام .

هذا الجو النفسي الذي يحياه الكاتب عند كتابة رسالته إلى الرسول الكريم يتسم بصفاء القلب، ورهافة الحس ، ورقة الشعور ، وصدق الإحساس، وطهارة الوجدان ، وقد جاءت هذه الرسائل بكل معانيها وأفكارها وموضوعاتها بل وألفاظها متوائمة مع ذلك الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب، ملتحمة به ، مفضية في النهاية إلى تعانق الأفكار مع المعاني ، وتآزر الشكل مع المضمون، معبرة عن إحساس الكاتب النفسي ، والسمو بالتجربة إلى أعلى درجاتها الفنية.

رابعا- تميز الظاهرة

لم يعرف الأدب العربي- على ما وصل إليه علمي - هذه الرسائل إلا في الأندلس ، في عصر ملوك الطوائف، فالأندلسيون هم الذين ابتدعوا هذا الفن النثري الجديد، وهم أول من كتبوا فيه، بعد ما ظهرت أمارات ضعف الدولة الإسلامية، فقد شعر الأندلسيون وهم يتأملون وطأة الأزمة على وطنهم بحاجتهم إلى مزيد من الإيمان يستلهمونه من هذه المخاطبات النبوية التي يوجهها الكاتب إلى قبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتتضمن التعبير عما تشعر به النفوس من شوق وحنين إلى زيارته وأداء فريضة الحج ، والاعتذار عن عدم الاستطاعة والاعتراف بالزلات والهفوات، والتوسل به ، ومناجاته ، إذ يجد الكاتب في مناجاته - صلى الله عليه وسلم- والحديث إليه ضربا من السلو، وراحة البال ، وأنس النفس .

وقد أشاد المقري بهذا النوع من الرسائل الذي تميز به أهل الأندلس عن غيرهم، فقال:"هذا مقام طالما طمحت إليه هِمم الرجال، وتسابقت جِياد أفكارهم في مضماره بالروية والارتجال، وسارت أرواحهم مع الرفاق ــ وإن أقامت الأشباح ــ، وطارت قلوبهم بالأشواق، ولم لا وهو سوق تعظم فيه الأرباح!"(٢٠٧).

فمقام الشوق إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– وزيارته والوقوف بحرمه ، والمكث في تلك الرحاب الكريمة عند بيت الله المحرم ، ورسوله المكرم، مقام شريف يشرف من يكتب فيه، ويتحدث عنه ، ويعلو قدره بحديثه عنه.

وقد وجدت أن كثيرا من الكتاب كتبوا في هذا اللون من الرسائل، ومنها رسائل كثيرة لم تصل إلينا ، "لاسيما بعد أن اعتقد كثير من المسلمين في قدرة هذه الرسائل على أن تكفل الاستجابة لدعوات كاتبيها" (٢٠٨).

إذ نجد المقري يقول : "ومن الكتاب من اتجه إلى قبر النبي – صلى الله عليه وسلم– وتوسل به لعل الله أن يشفيه من مرض أعياه أو ألمٍ ألمَّ به ، ولنذكر رسالة كتبها رحمه الله– يعني ابن أبي الخصال – عن رجل من أهل قرطبة يقال له: عبد الله بن عبد الحق الصيرفي وكان عليل الجسم، ولما وصلت الرسالة إلى القبر الشريف برِئ من زمانته ، ونصها: "بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد . إلى البشير النذير ، والسراج المنير ، المخصوص بالتعزيز والتوقير ، والبيت المقدس بالتطهير ، خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، والشفيع إلى رب العالمين . من عتيق هداه ، وزائره بمحبته وهواه ، المستكشف ببركته لبلواه، المستشفع بشفاعته في دنياه وأخراه، فلان"... الخ .

وهذا ما حدا بكثير من الكتاب والشعراء أن يكتبوا رسائل يبعثوا بها للنبي– صلى الله عليه وسلم– يعتذرون فيها عن عدم استطاعهم الزيارة، ويعبرون عن شوقهم وحنينهم إلى أداء الفريضة ، ومعاينة البقاع المقدسة .

---

(٢٠٧) أزهار الرياض : ٤/٢٠ .

(٢٠٨) المدائح النبوية : د. محمود علي مكي ص ١٢٢، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان، القاهرة ١٩٩١م.

هذه الرسائل تعد بحق ميزة للأندلسيين، وظاهرة متميزة تحسب لهم، وذلك راجع إلى بعد ديارهم عن أراضي الحجاز، وقد أذكاها الشوق والحنين إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– وأداء فريضة الحج استجابة لأمر الله –تعالى– ورجاء تطهير النفس من الزلات والآثام ، وطلب العفو والمغفرة.

إن ما أبداه الكتاب في هذه الرسائل من عاطفة جياشة ، وما بثوه من تباريح الشوق والحنين لأداء فريضة الحج ، وزيارة الديار المقدسة والرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم– لم يكن فقط وليد مشاعر ذاتية، بل كان أبلغ تصوير لما يجيش في صدور أهل قُطرٍ نأت بهم الديار ، وعزّت عليهم رؤية مشاهد الحجاز المطهرة ، وثمرة أرواح هائمة بحب المصطفى– صلى الله عليه وسلم– .

خاتمــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

وبعــد : فقد تمخض البحث عن النتائج التالية:

– هذه الرسائل تعد ميزة للأندلسيين، وظاهرة متميزة تحسب لهم، فهم الــذين ابتدعوا هذه الفن النثري ، وهم أول من كتبوا فيه ، وذلك راجع إلى بعد ديارهم عن أراضي الحجاز، وقد أذكاها الشوق والحنين إلى الرسول – صلى الله عليه وســلم– وأداء فريضة الحج، استجابة لأمر الله – تعالى– ، ورجاء تطهير النفس من الــزلات والآثام ، وطلب عفو الله – تعالى – ومغفرته.

– الأحداث التاريخية، والدوافع الدينية كانت سببا في كتابــة هــذه الرســائل ؛ يذكيها شوق جارف، وحنين يشتد بالكتاب إلى الرسول الكــريم– صــلى الله عليــه وسلم– والبقاع المقدسة، وقد سجل الكتاب فيها ما تنطوي عليه نفوسهم من شــوق وحنين ، وحرص بالغ على أداء فريضة الحج ، فهي تحمل فــي طياتهــا مــا تكنــه النفوس ، وما تخفيه الصدور نحو الرسول الكريم، والبقاع المطهرة.

– وجدت في هذه الرسائل الصدق الذي يطغى عليها، ويغلف كل كلمــة فيهــا، ويلف عباراتها؛ وتأجج الشوق في نفوس هؤلاء الكتاب، وحنينهم الجارف إلــى أداء الفريضة ، وزيارة النبي – صلى الله عليه وســلم– ، ورؤيــة البقــاع الحجازيــة المباركة.

– وجد الكتاب في الرسول الكريم – صلى الله عليه وســلم – المــلاذ الآمــن، والمغيث لهم من شكواهم ، فراحـــوا يبثون إليه ما يعتمل في نفوســهم مــن آلام وآمال ، ويستغيثون به عسى الله أن يزيح البلوى، ويكشف الغمة، ويفرج الكربــة، كما أثنوا عليه، وتوسلوا به في أسلوب جم ، وحياء أشــم ، يتــرجم عــن مكنــون الأفئدة، وما هي عليه من حنين وتشوق جارفَيْن.

– التنوع في البدء والختام من سمات هذه الرسائل؛ إذ لم يلتزم الكتاب ببدايــة معينة أو خاتمة بعينها، وإنما نوعوا في البدء والختام بما يعكس اخــتلاف الــرؤى،

وتعدد الأذواق، وهذا التنوع لم يكن الغرض منه مجرد التلوين في الكتابة، وإنما هدف الكتاب من ورائه إلى توظيف عناصر البدء والختام توظيفا فنيا يخدم المعنى، ويرسخ الفكرة، ويساعد على إبرازها، بما يقع موقع القبول والتأثير عند المتلقي ، ويحقق القبول والإمتاع.

– المعجم النثري في هذه الرسائل يوحي بتعظيم الكتاب للرسول– صلى الله عليه وسلم– وتوقيرهم له، وإجلالهم لشخصيته الكريمة ، كما يشي بتعلقهم به، وحنينهم إليه، وتشوقهم لأداء الفريضة، ومعاينة البقاع المقدسة، كما يكشف عن حبهم الصادق للرسول الكريم– صلى الله عليه وسلم.

– المعاني التي عبر عنها الكتاب في هذه الرسائل جاءت سامية، متآلفة مترابطة فيما بينها، يلفها جميعا روح دينية واضحة ، وجو إيماني عميق ، سيطر على نفس الكاتب وروحه وعقله ، جعله يعبر عنه في هذه الرسائل التي فاضت بها قريحته، وبث فيها ما يجول في خواطره ونفسه. كما جاء المعنى متوائما مع الجو النفسي الذي يحياه الكتاب وهم يسجلون رسائلهم للمصطفى الكريم –صلى الله عليه وسلم– بين الرحاب المباركة في مكة والمدينة .

– لجأ الكتاب إلى وسائل اللغة وأساليبها المختلفة في التعبير عن مشاعرهم، وما يختلج في نفوسهم ، فاستعانوا بأسلوب الاستفهام، والنداء، والدعاء، والأمر، والقسم، وقد استطاعوا أن يوظفوها في التعبير عن عواطفهم وانفعالاتهم، والكشف عن معانيهم وأفكارهم ، بغية تأكيد المعنى وتحقيقه ، وإقناع المتلقي والتأثير فيه.

– التناص الديني والأدبي من الظواهر التي برزت بروزا واضحا في هذه الرسائل، استعان به الكتاب، فأخذوا من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر العربي ما أسعفهم في التعبير عن خواطرهم ، وأعانهم في ترجمة مشاعرهم وأحاسيسهم تجاه الديار المقدسة، والرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم– ، وقد استطاعوا تطويع النص المقتبس لخدمة الفكرة، وتوضيح المعنى وإبرازه.

– استعان الكتاب بالمحسن البديعي لتزيين أسلوبهم وإضفاء مسحة جمالية عليه، كما وشّوه به لإحداث نوع من الإيقاع الموسيقي يطرب الآذان ، ويجذب المتلقي ، وقد اعتمدوا عليه كوسيلة لإبراز المعنى وتوضيحه ، وترسيخ الفكرة والتأكيد عليها، وعرض المضمون في صورة تجذب المتلقي .

– عمد الكتاب إلى الوسائل المتنوعة، وأنماط التصوير المختلفة في التعبير عن أفكارهم، والكشف عن معانيهم ، وتصوير مشاعرهم ، فعبروا بالتصوير البياني الذي يعتمد التشبيه، والاستعارة، والكناية، وغيرها، ولجئوا إلى التصوير التقريري الذي يعتمد الألفاظ وما توحي به الكلمات من دلالات، وما تشعه من ظلال وإيحاءات، كما استعانوا بالصورة الحركية لإضفاء الإثارة والحيوية على تصويرهم ، كما عمدوا إلى الصورة الممتدة لاستقصاء الوصف من شتى جوانبه، والتعبير عما يجش في صدورهم، والكشف عن تجربتهم ومعاناتهم من شتى زواياها، بما يؤكد مقدرتهم الفنية، ويشف عن براعتهم الأدبية.

– عاطفة الكتاب في التعبير عن تجربتهم ومعاناتهم جاءت منوعة، وقد تجتمع أكثر من عاطفة لدى الكاتب الواحد، فعاطفة الشوق تجتمع مع عاطفة الإجلال والتعظيم ، وعاطفة الخوف والرجاء تجتمع مع عاطفة الإشفاق والتحسر، وهذه الأخيرة تتقابل مع عاطفة الغبطة.

– رأيت في هذه الرسائل سموّ العاطفة وارتفاع غاياتها، فهي تهذب النفوس ، وتسمو بصاحبها نحو الكمال، وترقى بأحاسيسه ومشاعره، وتعمق في نفسه الحب والإخلاص، والإحساس بالبهجة والسرور.

– الطول من سمات هذه الرسائل ؛ إذ بث الكتاب فيها ما يلح عليهم من شوق بالغ لزيارة النبي – صلى الله عليه وسلم– ، وأداء فريضة الحج ، وحنين لا ينقطع لمشاهدة البقاع المقدسة ، ورسائل تدور حول هذه المعاني من الطبعي أن تتسم بالطول.

– وجدت تواؤما وتناسبا بين أفكار هذه الرسائل ومعانيها، وترابطا واضحا بين أجزائها، إذ يلفها رابط واحد يهيمن عليها من أولها إلى آخرها هو الرابط الإيمـــاني أو الديني، وهذا الرابط الإيماني هو الذي دفع الكتاب إلى كتابة هذه الرسائل، يعضده ويذكيه شوق ملتهب في أعماقهم، وحنين يشتد ويثور في قلوبهم ، وجوانح ملتاعة، ونفس مشتاقة لزيارة الحبيب– عليه الصلاة والسلام– وأداء الفريضة .

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله – تعالى– على سيدنا محمد وآله.

فهرس المصادر والمراجع

أولا ـ المصادر والمراجع :

- آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي(نصوص أدبية من القرن الهجري السابع جمعها بعض تلاميذه في حياته): تقديم وتحقيق: عبد الحميد عبد الله الهرامة ، دار قتيبة ، بيروت، الأولى ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
- أبو المُطرِّف أحمد بن عَميرة المخزومي ، حياته وآثاره : د. محمد بن شريفة ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب : تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي ، القاهرة، الثانية ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس : ابن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، عالم الكتب ، بيروت ، الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق : د. صابر عبد الدايم ، الزقازيق ، مصر ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: د. فايز عبد النبي القيسي ، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان ١٩٨٩م.
- الأدب العربي في الأندلس: د.عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الثانية ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض : شهاب الدين أحمد بن محمد المقَّري التلمساني، (الجزء الرابع) تحقيق : سعيد أحمد أعراب، ومحمد بن تاويت ، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ، الرباط ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
- الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية) : أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، السادسة ١٩٩٦م .
- أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، العاشرة ١٩٩٤م.

- أوراق من كتاب نقد النثر أو المنزلة الثالثة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة : قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، تحقيق: د. حسن عباس ، دار الحضارة بطنطا، مصر، بدون.
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق : د. كامل حسن البصير، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر : د. علي علي صبح ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عِذَارِى المَرَّاكُشِي، تحقيق : ج .س. كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣م.
- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) : د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، السادسة ١٩٨١م.
- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات، الأندلس): د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) ، تحقيق: د. حفني محمد شرف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .
- التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية : د . شفيع السيد ، دار الصفا للطباعة بالقاهرة ، الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- التناص الشعري، قراءة أخرى لقضية السرقات: د.مصطفى السعدني، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩١م.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور : ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق: د:مصطفى جواد ، د : جميل سعيد ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، العراق ١٣٥٧هـ - ١٩٥٦م.
- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : د.محمد علي النجار ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.

- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب : صنعة: أبي هفان المهزمي البصري، وصنعة: علي بن حمزة البصري، تحقيق : محمد حسن آل ياسين ص ٧٥ ، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان ، الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
- ديون كثير عزة، تحقيق:د. إحسان عباس ، دار الثقافة، بيروت ١٣١٩هـ- ١٩٧١م.
- ديوان مجنون ليلى: تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٧٩م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.
- الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٥م.
- رسائل ابن أبي الخصال : تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، سورية ، الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
- الرسائل الفنية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : د. محمد محمود الدروبي، دار الفكر للطباعة والنشر ، الأردن ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- الرسائل في مصر الإسلامية إلى نهاية الدولة الإخشيدية : د: أحمد أمين مصطفى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.
- شعر ابن ميادة :تحقيق : د. حنا جميل حداد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا : أبو العباس القلقشندي ، س: الذخائر ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٤م.
- صحيح مسلم (المسند الصحيح): الإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
- الصورة الشعرية : سيسل دي لويس ، ترجمة د. أحمد نصيف الجنابي وزميليه ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق ١٩٨٢م.

- الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس : ساسين سيمون عساف ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، الأولى ١٤٠٢ – ١٩٨٢م.
- الصورة الفنية في شوقيات حافظ : د.عبد اللطيف محمد الحديدي ، دار المعرفة بطلخا، مصر، الأولى ١٩٩٧م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة العلوي ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، القاهرة ١٤٠١هـ– ١٩٨١م.
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: أبو العباس الغبريني ، تحقيق : عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م.
- فن التشبيه : على الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة ، الثانية ١٣٨٦هـ– ١٩٦٦م.
- في النقد الأدبي : د شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، التاسعة ٢٠٠٤م.
- القانون في ديوان الرسائل : علي بن منجب الصيرفي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. أيمن فؤاد سيد ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م.
- قصيدة المقاومة في شعر إبراهيم طوقان، الأبعاد والملامح الفنية: د. جميل عبد الغني محمد ، القاهرة، الأولى ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م.
- قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجانى: د.محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة ، الأولى ١٩٩٥م.
- قضايا النقد الأدبي المعاصر د. محمد زكي العشماوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م.

- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ابن خاقان: تحقيق: د.حسين يوسف خريوش ، مكتبة المنار ، الأردن ، الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر -: أبو هلال العسكري ، تحقيق : د. علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- كتاب الوزراء والكتّاب : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ، تحقيق: أ.مصطفى السقا وزميليه ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.
- الكشكول لخاتمة الأدباء وكعبة الظرفاء: بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- لسان العرب : جمال الدين ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية : لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق: محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٧هـ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.
- المدائح النبوية : د. محمود علي مكي، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان، القاهرة ١٩٩١م.
- المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي : د. محمود سالم محمد ، دار الفكر ، دمشق ، الأولى ١٤١٧هـ.
- المذهب البديعي في الشعر والنقد : د. رجاء عيد ، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون.
- المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل : تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار الحديث ، القاهرة، الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
- المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية : تحقيق: إبراهيم الإبياري وزميليه ، إدارة نشر التراث، القاهرة ١٩٩٣م .

- المُغرِب في حلى المغرب: أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد الأندلسي ، تحقيق: د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.
- من صحائف النقد الأدبي: د. عبد الوارث عبد المنعم الحداد ، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
- مواد البيان : علي بن خلف الكاتب ، تحقيق : د. حسين عبد اللطيف ، منشورات جامعة الفاتح ، طرابلس ١٩٨٢م.
- موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي: د. رفيق العجم ، مكتبة لبنان ، بيروت، الأولى ١٩٩٩م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : الشيخ أحمد بن المقري التلمساني ، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- النقد الأدبي الحديث : د.محمد غنيمي هلال، دار الثقافة ودار العودة، بيروت ١٩٧٣م.

ثانيا ـ الأطروحات العلمية

- الرحلة إلى الحجاز في الأدب المصري الحديث، دراسة ونقد وموازنة: د. أحمد محمد على حنطور ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، كلية اللغة العربية بالمنصورة ، جامعة الأزهر ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

ثالثا- الدوريات

- مجلة التراث العربي (فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب) دمشق ، العدد الأول ، السنة الأولى، نوفمبر ١٩٧٩م. السيرة النبوية في التراث الأندلسي : د. محمد رضوان الداية .
- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني : بنية قصيدة المولد النبوي في الأندلس والمغرب العربي حتى القرن التاسع الهجري : د. عبد الحليم حسين الهروط ، السنة: السادسة والثلاثون ، العدد: الثاني والثمانون ١٤٣٤هـ- ٢٠١٢م.